المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام النبيين، أفصح العرب والعجم، به كل خُلُقٍ تَم، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد

فكان الشعر وسيظل لسان الأمم، وترجمان النفوس، الحاكي آلامها، الواصف آمالها، لا ينضب معينه، ولا يَكْدَرُ مورده، أهله ألسنة ناطقة وشموس مشرقة، يمتلكون أشجاراً مثمرة مورقة، وأفئدة للحب عاشقة، ولغد مشرق مستشرقة.

والشعراء في كل زمان ومكان رسل المحبة، ودعاة المودة، يبذلون حياتهم لإعلاء قيمة الكلمة، وربما دفع بعضهم حياته ثمناً لها، ولكنهم لا يتراجعون عن وظيفتهم السامية حين يشاركون البشر همومهم وأحلامهم، وحين يُسرون عنهم ساعة يشِيعون الأمل في النفوس اليائسة، ويعيدون البسمات إلى شفاه بائسة، هذا حالهم وتلك طبيعتهم، من أحبهم وسار في ركابهم صار منهم، ومن أعجب بهم وجاور محالهم أَنِسَ بأشعارهم، وسُحِر ببيانهم واغترف من نبع الحكمة، مصداقاً لقول النبي الكريم (ρ) إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة".

وفى كل العصور كان الشعر مجسداً حال الأمة واصفاً ما يعتريها من صرعات وحاكياً لما وصلت إليه من تقدم وازدهار، والعصور الوسطى في أدبنا العربي تموج بصراعات سياسية وثقافية انعكست على ألسنة الشعراء، ولكن الناظر دائما تأخذ عينَه البداية والخاتمة وربما مرّ على الوسط مرور الكرام، وتلك النظرة

تصدق على الأدب العربي فنجد الاهتمام الكبير منصباً على العصور القديمة ثم الحديثة، بينما ينقص ذاك الاهتمام بالعصور الوسطى بالرغم مما تمتلكه تلك العصور من أدب عالٍ وشعر رائق.

وحول العصرين الفاطمي والأيوبي دارت دراسات جادة ولكنها بالمقارنة بكم الدراسات الأدبية حول العصور المتقدمة تعد قليلة جداً.

ولعل ذلك من أسباب اختياري هذا البحث للدراسة، فبينما كنت في مرحلة الإعداد لرسالة الدكتوراه، التي كانت تحت عنوان (شعر الأُسَر في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي) تعرفت على هذا الشاعر من (آل عرّام) الذي كان أحد شعراء الأُسر، فأعجبت به أيّما إعجاب وودت لو أتيحت الفرصة لدراسة شعره وظهور ديوانه، وفي أثناء مناقشة الرسالة نبهني أستاذي الدكتور/ أحمد خليل أحد أعضاء لجنة المناقشة إلى هذا الشاعر فقد لفت نظره كثيراً حتى قبل قراءة الرسالة، وقال لي هذا شاعر يستحق دراسة مثله مثل غيره من الشعراء المجيدين، وحينما أتت الفرصة لم أدخر جهداً في إنجاز البحث. وبدوري أود أن أكشف في هذا البحث عن هذا الشاعر وهو من مخضرمي الدولتين (الفاطمية والأيوبية) كان من شيوخ الأدب وأعلام الشعرو هو الشاعر "علي بن عرّام" الذي كان مرآة لعصره، ناطقاً بلسان حال وقته، وله في ميدان الشعر سبق، وحاز بيانه قصب السبق.

وفي هذا البحث سنحاول – بإذن الله – التعريف بهذا الشاعر الكبير ودراسة ما بقي من شعره الذي نقله لنا العماد الأصفهاني في كتابه **(خريدة القصر وجريدة**

العصر) دراسة موضوعية تعقبها دراسة فنية، وسوف تكون خطتنا في هذا البحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: الحياة، ونتناول فيه حياة الشاعر وأسرته ومذهبه وأهم صفاته ومولده ووفاته.

المبحث الثاني: الدراسة الموضوعية وتشتمل على الأغراض الشعرية التي وردت في شعره مرتبة كالأتي:

1- المديح.

2- الغزل.

3- الرثاء.

4- الوصف.

5- الفخر

6- الحكمة.

7- الهجاء.

المبحث الثالث: السمات الفنية في شعر ابن عرّام وتشمل:

1- السمات الأسلوبية.

2- الألفاظ.

3- المعاني.

4- الخيال.

5- الموسيقا.

المبحث الرابع: ثبت بأشعار **(علي بن عرّام)** مرتبة على حروف المعجم ومنسوبة إلي بحورها ومبينة للمعاني الغامضة

ونتبعها **بخاتمة** بها أهم نتائج البحث ثم **قائمة بالمصادر والمراجع**، وأخيراً **فهرس لموضوعات البحث.**

والله أسأل أن أكون بهذا العمل قد كشفت عن شاعر مصري كبير لم يأخذ حظه من الدراسة، وأسأله تعالى أن يَمُنّ علينا بظهور ديوانه.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

دكتور/ بديع فتح الله عليوة

الطائف في 1432/5/19هـ
الموافق 2011/5/23م

المبحث الأول
الحيـــاة

حياة الشاعر

اسمه ونسبه وأسرته:

ذكره صاحب الخريدة وقال هو"السيد أبو الحسن علي بن أحمد بن عرّام الربعي"([1])، وزاد صاحب الطالع السعيد "أحمد" قبل الربعي وذكر بعدها الأسواني ([2]).

وترجم له السيوطي في حسن المحاضرة في سطرين ذكر فيهما اسمه ونوّه إلي ترجمته في الخريدة وذكر سنة وفاته وقال: "مات في حدود الثمانين وخمسمائة"([3])

وقال عنه العماد في الخريدة: "شيخ من أهل الأدب مقيم بأسوان فوق قوص، ملك من الأدب الخلوص، ومن الشعر الخصوص، وعدم ظل فضله القلوص، وهجر في لزوم وطنه الرحل والقلوص، وسألت عنه بمصر سنة ثلاث وسبعين فقيل إنه حي في أسوان، وهو على حظه أسوان، وطلبت شعره فأحضر لي بعض أصدقائي ديوانه، فوجدته عالياً في سماء السحر كيوانه، وجمعت شارد حسنه وألزمته صوانه، وغبطت عليه أسوانه، وجلوت بكر نظمه وعوانه، ووضعت لمأدبة أهل الأدب إخوانه خِوَانه، وأحضرت عليه ألوانه، فأحمد إذ حققت برهانه أوانه، وقد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق، ولفظه الرائع الشائق، ما إذا حُسِرَ سَحَرَ، وإذا أُصحر أَحْصَر، وإذا أُنْشِدَ نشد ضالة الأماني، وإذا أقمر نوّر هالة المعاني، فلابن عرّام في ميدان النظم عرام، وابتكار المعاني الحسان غرام، ولرويه في إذكاء نار الذكاء ضرام، والملوك باصطناع أمثالها يقال لهم كرام،

(1) خريدة القصر وجريدة العصر 165/2 للعماد الأصفهاني نشر أحمد أمين وآخرون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1951م، الوافى بالوفيات للصفدى 365/20، اعتناء أحمد حطيط، كلاوس شفارتس برلين، ط1، 2007م.

(2) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأدفوي تحقيق سعد محمد حسن و د/ طه الحاجري طبعة الدار المصرية 371–381.

(3) حسن المحاضرة 460/1 والزركلي في الأعلام 61/5 وكحالة معجم المؤلفين 20/7.

وكل سحر وخمر سوى منسوج فدامه وممزوج مدامه حرام، اعجب، بحر في الصعيد يُقْصد بالتيمم لمائه، ونجم في صعود السعود لا يرتقى إلى سمائه"([1])

وقال عنه صاحب الطالع السعيد:

"ذكره الحافظ المنذري فيما نقلت من خط المقشراني وقال: ذكر عبد الله الأنصاري أنه كتب عنه بأسوان وقال: لم أرَ في أرض مصر من يدانيه في فضله، ويضاهيه في نبله، وقال: وله تصانيف كثيرة في كل فن وأنه سمع من ابن البركات بمصر سنة خمس عشرة وخمسمائة"([2]).

أسرته:

ينتمي شاعرنا إلى أسرة شاعرة، لها في ميدان الفن والأدب باع طويل، وإسهامات قيمة استمرت دهراً في عصرين مختلفين هما العصر الفاطمي والعصر الأيوبي.

وقد عاشت أغلب الأسرة في صعيد مصر، وعرف لها فضلها وسبقها في ميدان الأدب فكان منهم الكاتب والشاعر والأديب.

منهم ابن عمه "هبة الله بن عرّام" كان شاعراً معروفاً ترجم له العماد في الخريدة والأدفوي في الطالع والسيوطي في حسن المحاضرة([3])

كان جميل الشعر، عظيم الفهم يقول عنه العماد: "كان قوياً في فهمه، جرياً في نظمه ماضياً في عزمه، راضياً بحزمه، توفي سنة خمسين وخمسمائة، ثم أهدى إلىّ فخرُ الدولة بن الزبير ديوانَه المذكور، فحصلت على الدُّرِّ المنثور، وقلدت الخريدة منه كل قلادة تزين كل غادة"([4])

ومن شعره متغزلاً:

---

(1) الخريدة 2/165–166.

(2) الطالع السعيد 371.

(3) الخريدة 2/177 والطالع السعيد 371–381 وحسن المحاضرة 460.

(4) الخريدة 2/186.

يـــالائمي فـــي غـــزال	***	قلبـــي رهيـــن يديـــه
لا تطمعـن فـي سـلوى	***	فـــلا ســـبيل إليـــه
كـم لامنـي فيـه قـوم	***	وعنفـــونـي عليـــه
متـــى إذا أبصـــروه	***	خـــروا ســـجدا لديـــه
فـاحفظ فـؤادك فالمـو	***	ت فـي ظبـا مقلتيـه([1])

مصادر اهتمت بشعره:

لا نجد من بين المصادر التي ذكر فيها شاعرنا من اهتم بشعره كاهتمام صاحب الخريدة العماد الأصفهاني في كتابه **(خريدة القصر وجريدة العصر)** قسم شعراء مصر حيث أفرد له عشرين صفحة من كتابه ما بين الصفحة رقم 165 و نهاية الصفحة رقم 185 من الجزء الثاني من الكتاب أورد فيها مائتين وثمانية وثمانين بيتا 288 رتبها على حروف المعجم غير أنه -غالباً- يذكر قبل كل قصيدة أو مقطعة أو نتفة أو بيت الغرض الذي سيق له فيحدد قال في المدح، أو الغزل أو الرثاء إلى غير ذلك.

ويبدو أن العماد كان يميل إلى شاعرنا حيث إنه كان يسلك ذاك الاتجاه الجديد في مدح الأيوبيين، وعدم ذكر الفاطميين الذين حُورِبُوا من قبل الدولة الجديدة بكل السبل، خاصة في ذلك التراث الشعري الضخم الذي خلفه شعراء الدولة الفاطمية والذي وَاجهه الأيوبيون بالإبادة والمنع، حيث أُحْرق الكثير من الدواوين ومُنع تدريس هذه الأشعار أو تعليمها للناشئة لذا كان في مدح شاعرنا للأيوبيين سبلٌ في اهتمام العماد بنقل جزءٍ من شعر علي بن عرّام إلى كتاب الخريدة، ولعله كان يحس بغلظ يد الدهر التي لم ترحم الديوان ولن تتركه خالداً خلود الزمن، فلم يبق من شعر ابن عرّام إلا ما جاء في الخريدة كمصدر أصيل.

(1) الخريدة 195/2.

أما المصدر الثاني لأشعار الرجل فهو كتاب **(الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد)**، للأدفوي المتوفَّى سنة 748هـ ويعد الأدفوي ناقلاً عن الخريدة.

وأورد الأدفوي مائة وثلاثة أبيات (103) وردت كلها في الخريدة وفي بعضها خلاف، ولكنه ذكر اثنى عشر بيتاً لم يذكرها صاحب الخريدة ولا أدرى من أين أتى بها وهو الناقل حتى في ترجمته.

مذهبه:

لقد عاش شاعرنا مدة من عمره في العصر الفاطمي ولكنه عاش أكثر حياته في العصر الأيوبي، ولا نجد في المصادر التي بين أيدينا ما يدل على أنه تشيع أو كان حتى يميل إلى ذلك، و لم يذكر أيضا صراحة أنه كان على المذهب السني، ولكن أشعاره كلها تنطق بذلك فمدائحه-في الغالب-في الولاة والسلاطين الأيوبيين ومدائحه الأخرى في الأثرياء وأصحاب العطاءات.

كما أنه كان دائماً يحب ذكر الشام ويصف ما فيه من جمال وروعة، ويشتاق في شعره إلى السفر إليه والعيش فيه، ولا ريب أنه كان يعلم جيداً أن الأيوبيين جاءوا من الشام وأن قلوبهم دائمة الاشتياق إليه، وعلى هذا الوتر كان يضرب، فالشام على المذهب السني، بل ويذكر في شعره أن نجاة مصر من كل ظلم أو طغيان يأتي من الشام ويقرن بين يوسف الصديق (υ) الذي نجّى الله مصر على يديه من سنوات عجاف، ويوسف بن أيوب (صلاح الدين) – الذي نجّى الله مصر على يديه من الفاطميين والصليبيين فيقول:

أيوسف مصر إنما أنت يوسف * فأنت ابن أيوب وذاك ابن يعقوب**

وما برحت مصر قديما حماتها * ببعث من القَطرِ الشامي مجلوب [1]**

بل ويزيد في ذلك بأن يذكر أن الدين كاد نوره أن يخفت، ويصيبه التبديل والتحريف لولا أن منَّ الله على مصر بآل أيوب فحصنوه من التبديل وحموا بيضته بسيوفهم ورماحهم يقول:

(1) الخريدة 171/2.

وقد كاد دين الله يخفت نـوره ** ويُرْمى بتبديل وشـيك وتقليب
فحصــنتموه بالأسنة والظبا ** وتصـــعيد آراءٍ كَفْتُه وتصويب
فلست ترى إلا محاريب في وغى ** حموا بيضة الإسلام أوفى محاريب([1])

ومن خلال مدائحه تلك تثق أن الشاعر كان على مذهبهم السنيّ فقد كان الشاعر يعيش في كنفهم ويحصل على الجوائز والعطاءات منهم فضلاً عن محبته لهم وهذا كله يؤكد أنه كان على مذهبهم.

صفاته:

يظهر من ترجمة الشاعر ومن أشعاره أنه كان على خلق وأدب، يتحلى بجميل الخصال وكريم الأخلاق، فعنه قال العماد "شيخ من أهل الأدب مقيم بأسوان فوق قوص، ملك من الأدب الخلوص" ([2]) وكتب صاحب الطالع قائلا عنه: "وذكر الحافظ المنذري فيما نقلت من خط المقشراني، وقال: ذكر أبو عبد الله الأنصاري أنه كتب عنه بأسوان وقال:لم أر في أرض مصر من يدانيه في فضله، ويضاهيه في نبله"([3]).

ولا نغفل ما ذكره هو بنفسه عن نفسه في أشعاره أنه كانت له هَنَات في شبابه جعلته يقترف بعض ما يقترف أمثاله وأقرانه في حميّة الشباب وعصر الفتوة، بل نراه يتحسر على شبابه الضائع ويتمنى له عودة..وأنى له ذلك ؟.. يقول:-

أحبب بعصر الصبا المأثور والغزل ** أيام لي بالغواني أعظم الشُّـغُلِ
وإذا غريمي غرام لسـت أفتر من ** أوصــابه وعذابي فيـه يعذب لي
من لي بعَود شـــباب منـذ فارقني ** لم ألق مـن عوض عنه ولا بدل
لبست برد الصـــــبا حينا بجـدته ** فأخلق البُردُ حتى صرت في سمل

(1) الخريدة 171/2.
(2) الخريدة 165/2.
(3) الطالع 371.

كم ليلة نلت من نبل المنى وشقت ** بذلك الوصل ما بالصدر من عِلَلِ

علقتها غـرةً غـــراء غــرتها ** كالبدر حَفَّ بليل فاحم رجل ([1])

لكنه بعد أن لاح الشيب بعارضه ورأى أنه دخل مرحلة لا ينبغي له فيها أن يخطئ يقرر ألا يقترف إثما أو يدنو من خطيئة يقول:

أغيُّ وقد لاح المشيب بعارضي ** وفيه لعمري واعظ أي واعظ

سـأكرم نفسي أن تقارف ريبة ** بِسر دفينٍ أو بـعين ملاحظ ([2])

وحينما أوشك على الستين يقول لنفسه أنه لا يمكن له - أبداً- أن يخطئ أو يرتكب ما يلام عليه فإن هو شبب في شعره وذكر الغواني فهذا مذهب الشعراء من قبله يقول:

وإني وإن شَبَّبْتُ لا عن شـبيبة ** فمذهب قوم في القريض مضوا قبلي

أأخطئ في قصدي وأخطو لصبوة ** وجامعة الستين قد جمعت رجلي ([3])

يذكر شاعرنا شيئاً من صفاته في كثير من أشعاره، فها هو ذا يصف نفسه بأنه صبور على كل حال يحتمل من الزمان كل ما يسوقه إليه، وهو لذلك يرى أن من يعرفه جيداً أو يعاشره يحمد فيه صفاته الكريمة وخلاله النبيلة يقول:

إذا ساء خلق كريم الرجال ** لضيق من الحـال أو نكبةِ

فإني ملئ بصـبر جميل ** يُحسِّنُ في عُسْرتي عِشْرَتي([4])

كما يرى في نفسه أنه محب للقناعة والتقى، كاره للحرص والطبع الذميم،ساعٍ إلى صنع المعروف، تارك فعل القبيح، ولذا فهولن يجد من يشاركه تلك الخصالَ ليكون له خليلاً. يقول:

---

(1) الخريدة 180/2.

(2) الخريدة 178/2.

(3) الخريدة 182/2.

(4) الخريدة 171/2–172.

وإني محـب للقنــاعة والتقى ** وللحرص والطبع المذمم فاركُ

وساع إلى صنع الجميل مسارع ** ومطّـرحُ فعلَ القبيــح وتاركُ

ومن لي بخلٍ في الزمان مصادقٍ ** يسـاهم في بأسائه ويشارك ([1])

ويرى أيضاً أنه من أفضل الناس في عصره، وأنه كان يستحق من التقدير والتكريم أكثر مما هو فيه، لذلك فقد ترك أسوان وسافر إلى غيرها لأن في بلده يستوي الجميع، العالم والجاهل وصاحب الموهبة والخلي منها وذلك أمر منكر يقول:

لا تطيلي على الرحيل ملامي ** فلأمر إمْرٍ كرهت مقامي

أي خير في بلدةٍ يستوي ذو الـ ** ـنقص فيها بفاضل الأقوام ([2])

ويخبرنا عن نفسه بأنه عالم في عدة علوم فهو لغوي وناقد وشاعر ونحوي لذا فيجب على من يتعرض لمدح من مدحه أن يتنبه جيداً قبل الإقدام على ذلك يقول:

أمادحه استيقظ فشعرك وافد ** على لغوي شـاعر نـاقد نحوي

فمن كان في قول مُجِيداً وقاصداً ** مَجِيداً به فليحذُ في نظمه حَذْوِي([3]) حَذْوِي([3])

فالرجل كانت له صفات كريمة، خُلقاً وعلماً، كان يفخر بها ويراها في نفسه سبباً لبلوغه المجد والسؤدد.

مولده ووفاته:

لم يذكر صاحب الخريدة سنة وفاته وذلك أنه حين صنف كتابه كان شاعرناً لا يزال حياً يرزق وذلك من قوله "وسألت عنه سنة ثلاث وسبعين فقيل أنه حي في أسوان"([4]) وهذا يعني أنه عاش بعد سنة 573 هـ كذلك لم يؤرخ الأدفوي في الطالع لسنة وفاته،وأرخ السيوطي لوفاته في حسن المحاضرة وقال "مات سنة

(1) الخريدة 180/2.

(2) الخريدة 193/2.

(3) الخريدة 185/2.

(4) الخريدة 165/2، واظرالوافى 366/20.

580هـ ([1]) وعن السيوطي نقل الزركلي في الأعلام وكحالة في معجم المؤلفين"([2])، وكذلك لم يذكر أي من المراجع شيئاً عن عُمْر الرجل وقت ُوفاته سنة 580هـ.

وأقول إن عمر الرجل حين توفي كان بين السبعين والثمانين وذلك أن العماد حين خط الخريدة قال إن الشيخ حيٌّ بأسوان وذلك سنة 573هـ وأن الأدفوي ذكر أن شاعرنا سمع من ابن البركات سنة 515 هـ وما بين 15 و 73 هى 58 عاماً إذن هذه المدة مقطوع بأنه عاشها، ثم في شعر الرجل الذي نقله العماد قوله "وجامعة الستين قد جمعت رجلي" أي أنه كان قد تجاوز الستين عاماً حين نقل العماد شعره، وعاش بعد ذلك حتى سنة 580هـ إذن نضيف سبع سنوات أخرى إلى عمره فتصبح 65 عاما، والشاعر حين سمع من ابن البركات سنة 515 هـ، فلا يعقل أن يكون سمع وهو ابن خمس سنوات، ونرجح أنه كان على الأقل ابن عشر سنوات أو خمس عشرة سنة فلا يعقل أن يجلس أمام ابن بركات من هو دون هذا السن وحينما نضيف إلى 65 عشر سنوات يصبح عمره 75 عاما وإن أضفنا خمس عشرة سنة يصبح عمره 80 عاما، ونخلص من ذلك إلى أن شاعرنا عاش قبل سنة 515 هـ من 10 إلى 15 سنة وتوفي سنة 580 هـ إذن فعمره حين توفى ما بين سبعين إلى ثمانين عاماً، ومن هنا يمكن القول بأن مولده كان بين سنتي 500 و 505 هـ.

(1) حسن المحاضرة للسيوطي 325/1.

(2) الأعلام للزركلي 61/5 وكحالة في معجم المؤلفين 20/7.

المبحث الثاني
الدراسة الموضوعية

أغراض شعره

تنوعت أغراض شعر علي بن عرّام بين مدح وهجاء وغزل ورثاء، ووصف وفخر، واعتذار وعتاب وشكوى وحكمة وغيرها، ويدل هذا على مقدرة الشاعر الفنية والإبداعية التي تجعله يخوض في كل ميدان ويضرب بسهم في كل اتجاه، ولا تكاد تُحِسُ بضعف في أي لون من ألوان شعره ولو وصلنا ديوانه كاملاً لوجدت فيه خيراً كثيراً.

وتكفينا شهادة من قرأ ديوانه كاملاً وأخذ منه مختارات نقلها إلينا عبَّر فيها عن غبطته بشعره واستحسانه نظمه يقول العماد:

"فأحضر لي بعض أصدقائي ديوانه، فوجدته عالياً من سماء السحر كيوانه، وجمعت شارد حسنه وألزمته صوانه..... وقد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ولفظه الرائع الشائق، ما إذا حُسِرَ سحر، وإذا أصْحر أحْصَرَ، وإذا أنشدَ نشدَ ضالة الأماني وإذا أقمر نوّر هالة المعاني، فلابن عرّام في ميدان النظم عرام، وبابتكار المعاني الحسان غرام، ولرويه في إذكاء نارِ الذكاء ضرام والملوك باصطناع أمثالها يقال لهم كرام"([1])

وسنتعرض لكل غرض على حده ندرسه دراسة موضوعية ثم نتبع ذلك بدراسة السمات الفنية في شعره.

أولاً: "المديح"

إن المدة التي عاش خلالها الشاعر علي بن عرام كانت تموج بأحداث جسام ما بين سقوط دولة وقيام أخرى، إلى حروب طاحنة بين المسلمين والغزاة الصليبيين فضلاً عن الحروب الداخلية بين الدويلات الصغيرة بالإضافة إلى الثورات الداخلية والانقلابات العسكرية هنا وهناك.

وحتى حينما استقرت الأمور في مصر والشام بيد صلاح الدين وجمع الكثير من المسلمين تحت رايته ركز جهوده في محاربة الصليبيين مدة حياته، واستمرت تلك الحروب بعد وفاته مدة طويلة.

(1) الخريدة 165/2.

كل هذه الأجواء الحربية التي كانت مصر بؤرتها ألقت بظلالها على إبداع الكثير من الشعراء وبخاصة الشعراء الذين تعرضوا لمدح القادة والملوك والسلاطين الذين ضربوا بسهم في تلك الحروب الشريفة، وخلدوا أسماءهم في سجل العظماء بجهودهم المحمودة بداية بمحمود زنكي في الشام وطلائع بن رزيك في مصر وانتهاءً بالسلطان الأشرف خليل قلاوون المملوكي.

وشاعرنا كان واحداً من هؤلاء الشعراء الذين تأثروا بتلك الحروب في مدائحهم ويتردد رجع صداها في جنبات مدائحه، والتي كانت أغلبها في رجال من آل أيوب والمدائح التي على هذه الشاكلة تكون "الشجاعة" هي الوتر الرئيس الذي يعزف عليه الشاعر، وحول الشجاعة والإقدام وخوض المعارك والبسالة وقوة البأس ونصرة الإسلام والدفاع عن أرضه وغيرها من لوازم الشجاعة تدور مدائح شاعرنا في آل أيوب عامة والأمير مبارك بن منقذ خاصة.

فها هو ذا يصف وصول آل أيوب إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين – حين نزل الفرنج عليها – بأنه حينما دُعُوا إلى مصر لبّوا نداءها على خيولهم الأصيلة فأنزلوا بالروم شر هزيمة فقتلوا وأسروا الكثير منهم وكسروا صلبانهم، وصلبوا علوجهم، وفرّ عميدهم ورحلوا عن مصر بشرهم، ورفعت راية الإسلام بعد أن أوشكت على النزول. يقول:

ولما دُعُوا من مِصرَ لَبُّوا دعاءَنا ** على كلِّ نَهْدٍ لَيِّنِ العُنْقِ يَعْبُوبِ

فأردَى كماةَ الروم شَدَّةُ بَطْشِهِمْ ** فهم بين مطلولِ الدماء ومطلوب

فلستَ ترى في عصبةِ الشركِ حاملاً ** صليباً ولا عِلْجاً لهم غيرَ مَصْلوب

وحسبهمُ ذاكَ الطعانُ الذي غَدَتْ ** بهم قِصَداً فيهم صدورُ الأنابيب

وظلَّ عميدُ الرومِ من حَذَرِ الرَّدَى ** يَؤُمُّ طريقاً بينهم غيرَ ملحوب

ونَكَّبَ عن مصرٍ وَوَلَّى بمَنْكِبٍ ** جريحٍ بأنيابِ النوائبِ مَنْكُوبِ

وقد كـــادَ دينُ اللهِ يَخْفتُ نـُـــورُ ** ويُرْمَـى بتبـديلٍ وشيـــكٍ وتقلــيب

فحصَّـــــنْتُمُوهُ بالأَسِـــــنَّةِ والظُّبَـا ** وتصـــعيدِ آراءٍ كَفَتْـــهُ وتَصْـــويب

فلســت تـرى إلا مَحَاريـبَ فـي وغـى ** حَمَوْا بيضةَ الإسلامِ أَوْفى مَحَاريبِ([1])
مَحَاريـــــــــــــــــــــبِ([1])

ثم نراه في ذات القصيدة التي كتبها في الملك المعظم سلطان اليمن شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وكانت بلاد الصعيد له من قبل اليمن - يعرج على مدح آل أيوب ويصف صلاح الدين بالشمس وإخوانه بالنجوم، ويؤكد على أن مصر أتي لها النصر من قبل الشام قديماً بيوسف الصديق وحديثاً بيوسف بن أيوب، يقول:

ومـــا المُـــــلْكُ إلا لائـــقٌ بأَخيكـــمُ ** وغـــارِبُهُ إلاّ لَـــهُ غيـــــرُ مَرْكـــوبِ

فـأنتم نجـومٌ وهـو كالشـمسِ ضَـوْؤها ** مَلِـــيٌّ بتَشْـــــــرِيقٍ يعُـمُّ وتغـــريب

أَيُوســفَ مصرٍ إنمـا أَنْـتَ يوسُـــــفٌ ** فأَنْـتَ ابـنُ أَيُّـوبٍ وذاكَ ابـنُ يعقـوب

ومـا بَـرِحَتْ مصـــرٌ قـديماً حُمَاتُهـا ** ببعثٍ من القُطْرِ الشـآميِّ مَجْلوبِ([2])

وفي أخرى مدح بها عز الدين موسك الناصري والي قوص وأسوان يقول:

يُبيحـون فـي سُـبْلِ المكـارمِ مـا غَـدَتْ ** تُبيحُهُمُ فـي الـرَّوْعِ بيضُ القَضـائبِ

فـآراؤهُمْ تكفـي النصـالَ نصـالَهُمْ ** كمـا كُتْبُهُمْ تُغْنِـي غَنَـاءَ الكتـــائب

أقـــولُ لِمَمْنـــوٍ بـرَيـــْبِ زمانـــهِ ** ومَـن ظلَّ مَعْضوضاً بنـابِ النَّوائب

ومـن أَخَـذَتْ منـه التَّنـائفُ والسُّـرَى ** فليس تـراهُ غيـــرَ أَغْبَـرَ شـــاحبِ

عليـكَ بعـزِّ الديـــن فاســـتَذِرْ ظِـلَّهُ ** ولُذْ بعزيزِ الجـارِ رَحْـبِ الجوانب

إذا ظَمِئَـتْ سُـــمْرُ الرمـــاحِ بكفِّـــه ** سَـقَاها فـروّاها دمـاءَ الترائبِ([3])

(1) الخريدة 171/2.

(2) السابق نفسه.

الترائـــــــــــــــــــــــــب[1]

وكذلك يظهر أثر هذه الحروب في مدائحه حينما يقول:

ورع وأروع باســـــــــــــــــل ** عنـــد المَحَـــارب والمُحَـــــارِب
يهـــــوى المعـــــارف لا المعـــــا ** زِف والمشـــــاعر لا المشـــــارب
ســـــمر العـــــوالي فـــــي العـــــلا ** تلهيـه عـن بـيض الكـــواعب[2]

يؤكد علي بن عرّام في هذه الأبيات على أن ممدوحه يجمع بين الحسنيين الشجاعة والقوة في الجهاد وبين القوة في العبادة والطاعة لله عز وجل، وكذلك ممدوحه يستغني بالعلم والمعرفة عن المعازف، وبالمشاعر عن المشارب وبالسمر العوالي من الرماح في ساحة الوغى عن الجواري والنساء.

ووجد شاعرنا ضالته في الأمير مبارك بن منقذ،الذي حارب الصليبيين كسابقه أسامة بن منقذ فوجد شاعرنا فيه الأمير المحارب الشجاع، وأيضاً الكريم المعطاء، فراح يبعث إليه بقصائد رائعة، تعظيماً وتكريماً لهذا الأمير، وكذلك لطلب رفده وعطائه، ثم لم يكتف بذلك فسافر إليه وجاوره وفي ذلك يقول:

لجـأْتُ إِلـى خيـر الأَنـام ابـنِ مُنْقِـذِ ** ليصـبحَ مـن أَسْـرِ الحـوادثِ مُنْقِـذِ
ولـذتُ بحُـــرٍ فـي الأَنـــامِ مُنَجَّـدٍ ** بصـــيرٍ خبيـرٍ بالأَنـــــامِ مُنَجَّـذِ
أَقُـولُ لنفســي إِن تـدانـي مَـزَارُهُ ** خذي ذِمَّـةً منه لنـــائبة خُذِي[3]
خُـــــــــــــــــــــــــــذِي[3]

وحينما نقرأ مدائحه فيه نرى ذلك الأثر العظيم لهذه الحروب في شعره، فيذكر أنه وقومه من بني منقذ حملوا مسئولية الدفاع عن الإسلام وأهله، وبالرغم من انشغالهم بالحروب والغارات لم ينشغلوا عن العلم والمعرفة والكرم، يقول:

(1) السابق 167/2.
(2) الخريدة 2/ 169.
(3) السابق 175/2.

هـمُ حَمَّلـوا ثِقْـلَ المغـارمِ مَالَـــهُمْ ** وخَلَّـوْهُ وَقْفـاً بينـــــهمْ لِلْمَنَـــاهِبِ

صــفائحُ فـــي أَيـــديهمُ أَو صـــحائفٌ ** فهـمْ بـين كُتْـبٍ تُقْتَنَـى أَوْ كَتــــَائبِ

هــواهمْ علـــى أنَّ المـــآربَ جَـــمَّةٌ ** صـريرُ يـراعٍ أَوْ صَـــليلُ قَوَاضِــب

وجـــادوا بفضــلٍ بـــاهرٍ وفضـــائلٍ ** عَطاءَيْنِ من عِلْمٍ وَفَيْضِ مَـوَاهب([1])
مَـــــــــــــــــــــــــوَاهب([1])

لم يذكر أحد ممن ترجم لشاعرنا أنه امتهن مهنة غير الأدب والشعر،فلشاعرنا ديوان مفقود وله "تصانيف كثيرة في كل فن"([2]) كما ذكر العماد.

ومن شعره نرى أنه كان يكسب منه قوته، ولا سبيل إلى ذلك سوى مدح أهل الجود والعطاء سواء من الملوك والأمراء والعامة والأثرياء، فنراه يكثر من طلب الصلة والعطاء، بل ويرحل من بلده قوص أو من أسوان ليذهب إلى القاهرة أو إلى الشام يطلب رزقه ويسعى بمدائحه إلى أهل العطاء سعياً وراء السعة.

وهو حين يطلب السعة لا يستحي من ذلك بل يصرح ويوضح حتى لا يكون أمام الممدوح سوى إجابة الطلب وتلبية النداء، من ذلك قوله في عز الدين موسك الناصري:

قصـــدناك يـــا خيـــر الأنـــــام لنكبـــة ** عـرَت أقصـدتنا بالسـهام الصـوائب

وقــد وثـــقت آمـــالنا أن قصــــدنا ** جنابك يـا خيـر الـورى غيـر خـائب

وقــد علقــت أيمـــاننا منــــك ذمــــة ** وَقَتْنـا ملمــات الزمـــان المغـــالب

وإن لــم تسـعفنا منــك عطفــة راحــم ** وإلا فقــد ضــاقت فجـــاج المــذاهب

ودونـــك معـــروف يفيــــدك عاجـــلاً ** ثنــاء ويبقــى أجْـرُه فــي العواقـب([3])

وشاعرنا يرحل في طلب رزقه، فيترك أسوان وينزل بالشام في كنف الأمير مبارك بن منقذ ويعلم أنه لن يخيب ظنه وسينال فوق ما تمنى... يقول:

---

(1) السابق 168/2،169.

(2) السابق 165/2.

(3) الخريدة 168/2.

أقــولُ لنفســي إذ تــزايدَ ظُلــمُهُمْ ** فِـرَارَكِ مـن دارِ الهُويْنـا فــرَارَكِ
فَلَلْمَـوْتُ خيــرٌ مـن مُقــامٍ مُـذَمَّمٍ ** تَـرَيْنَ بـه بَـيْنَ الليــالي احتقـارَكِ
وفـي غيـرِ أســوانٍ مَـرَادٌ ومَـذْهَبٌ ** فـلا تَجْعَلـي شَــرَّ النـواحي قَـرَارَك
فخيـرُ بــلادِ اللّه مـا صـانَ مِـن أَذًى ** وأَضــحى مَحــلاً للأميــرِ مُبــارك
يقـولُ لـه مـن جــاءَ يَطْلُـبُ رِفْــدَهُ ** ونَـجْـدَتَــهُ انعَشْ بالنـدى وتَــدَارك
ويَشْــرَكُهُ فـي مـالــه كــلُّ قـاصــدٍ ** ولكنـه فـي المجد غيرُ مُشـارَكِ ([1])

ويقول في أخرى:

كـريــمٌ عليــمٌ فهــو يَلْقَـى مديــحه ** ومادِحَـهُ فـي النـاس بالنَّقْـدِ والنقـدِ
تـرى الخيـرَ طبعـاً فـي عـلاه عزيمـةً ** فهل كـان مَهْـدِيًّا لـذاك من المَهْدِ ([2])

وفي إحدى مدائحه يقول لممدوحه واسمه (سعد الدين) أنه ما قصده إلا ابتغاء عطائه، فحينما وعده الممدوح بالعطاء أمل فيه كل أمل ووضع عنده كل رجاء وذلك بعد عضه الزمان بنابه، وأصابه من الفاقة كل بلاء... يقول:

أَسَـعْدَ الـدين قـد نَشَــأَتْ سَــحَابٌ ** بِوَعْـدِكَ والمُــراد هــو الرَّشَــاشُ
فمــا بالـغيــمِ لــي نَـفــعٌ ولــكن ** بفـيضِ الغَيْـث قـد يَـرْوَى العِطَـاشُ
فلــم أَقْصِــدْكَ دونَ الـنــاس إلا ** رجــاءً أَنْ يكــونَ بـك انتعــاشُ
وكــم جَــازَ القِفَـارَ إِليــكَ عَبــدٌ ** يُؤَمِّــلُ أَنْ يكــونَ بــكَ انتيــاش
وأَوْفَــى مــن بــلادٍ شاســعاتٍ ** يضــيقُ بـهــا لساكنــها المَعَـاشُ
آمَنَــهُ الزمــانُ فـقــد تَصَــدّى ** لــه وأَصَــابَهُ منــهُ خِـدَاش
وكــم حـصَّ الزمــانُ جنــاحَ قَـوْمٍ ** ولكـنَّ الكــرامَ رَعَــوْا فَرَاشُـوا([3])

(1) الخريدة 180/2.
(2) الخريدة 173/2.
(3) الخريدة 177/2.

وفي أخرى نراه يحدد ما يريد فيقول لممدوحه أنه لا يريد مالاً- ولو أراد لم يفته- ولكنه لفرط البرد يريد فروةً يستدفئ بها فيقول:

أَيـــا مَلِكـــاً يُعْطِي على كلِّ حـــالةٍ ** ويُعْطي أَخُوهُ الغيثُ في الغَيْمِ لا الصَّحْوِ
وما أَبْتَغِي مالاً، ولو شـئتُ لم يَفُتْ ** لديك وهذا ليسَ قَصْدِي ولا نَحْوِي
ولكنْ لِفَضْلِ البَرْدِ في الجسم سَوْرَةٌ ** وليس بِوَاقٍ من أَذاه ســوى الفَرْوِ
فجودُكَ يَكْسُوني وَيُرْوِي من الظَّمَا ** ومَدْحي لما أَوْلَيْتُ من حَسَنٍ يَرْوِي([1])

ولكنه حين يخاطب أديباً فاضلاً وعالماً جليلاً نجده يتحرج من ذكر حاجته صراحة بل يشير إشارة عابرة ثم يمضي في مدحه الذي ساق من أجله القصيدة، ومن أجمل ما قرأت في طلب الحاجة ما يأتي عن طريق (الكناية) لما فيها من ستر وخفاء لا يفضح أمر السائل ولا يلام بسببها المسئول، وأجمل ذلك على الإطلاق قول ربنا عز وجل (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ]([2])

وشاعرنا يعي ذلك جيداً فيعلم أن ممدوحه عالم فاضل قوي الملاحظة عظيم الفهم ذو فطنة ونباهة، لذلك لن يذكر حاجته صراحة بل يكفيه التلميح عن التصريح، والإشارة عن العبارة، ويستخدم نفس كلمات النبي الصالح أيوب (υ)، فحين يمدح القاضي الفاضل يقول:

علـــى اللّـــه مُعْتَمَـــدُ الســـائلِ ** فَعَـــوِّلْ علـــى لُطْفِـــهِ الشـــاملِ
وقـــد مَسَّـــني الضـــرُّ حتـــى لَجَـــأْتُ ** إلـــى كَنَـــفِ الفاضِـــلِ الفاضِـــلِ
لـــقـــد وفّقْـــتْ دولـــةٌ رأْيُـــها ** إلـــى الـــوَرِعِ العـــالِمِ العامِـــلِ
مـــلِيٌّ بـتدبيـــر أَحْكـامـــِها ** وأَحكـــامِ مُشْـــكِلِها النـــازِلِ
وَمَـنْ يَفْـــزعُ الحـــرّ مِـــن فَضْـــلِهِ ** إلـــى خيـــرِ كـــافٍ لـــه كافـــلِ

(1) الخريدة 183/2.

(2) الأنبياء 83.

ومـــن تَمّـــمَ اللّهُ نقـــصَ الأَنـــــامِ ** بســـــؤْدُدِهِ البـــــاذخِ الكـــــامل

تَوَاضَـــعَ عـــن رِفعَـــةٍ فـــاعتَلَى ** وكـــم حَـــطَّ كِبْـــرٌ إلـــى ســـافِلِ([1])

وهكذا نرى المديح عند شاعرنا قد أخذ محورين أساسيين:

أولهما: مدح العظماء من القادة والملوك والسلاطين تخليداً لأمجادهم وتعظيماً لأفعالهم ولا مانع أن يكون ذلك مقترناً بطلب الرفد وذكر الحاجة.

ثانيهما: طلب العطاء وابتغاء الجائزة صراحةً، فهذا دأب كثير من الشعراء سبقوه في ذلك خاصة الشعراء الذين لا مهنة لهم إلا الشعر والأدب.

ثانياً: الغزل

قبل أن ندرس الغزل عند علي بن عرّام لابد من التأكيد على ملحظين في غاية الأهمية تبينا لي عند قراءة شعره الغزلي:

الأولى: أنه لا توجد لديه قصيدة غزلية طويلة وإنما هي مقطّعات صغيرة ونتف لا تتجاوز الخمسة أبيات، وهناك اثنتا عشرة نتفة مكونة من بيتين فقط، وثلاث مكونة من ثلاثة أبيات، وواحدة من أربعة، وواحدة من خمسة أبيات، وقصيدة واحدة وهي أطولها مكونة من اثنى عشر بيتاً إذن فمجموع شعره الغزلي تسعة وخمسون بيتاً.

وتأتي هذه الأبيات في مناسبات مختلفة، أو تساق في مقدمة قصائد المديح، وذلك يدل على أن الشاعر لم يوجه اهتمامه تلقاء الغزل بقدر ما وجهه إلى المديح ولعل ذلك راجع إلى ما كان يجده الشاعر من مكابدة العيش، والمديح سبيله إلى التكسب ونيل الجوائز التي تمسك رمقه وتكفيه باءته، وليس ذلك في الغزل. كمايدل أيضا على أنه كان يحرص على تقليد القدماء فى المقدمات الغزلية.

الثانية: أرى أن الشاعر لم يعش قصة حب حقيقية ولم يخض تجربة فعلية، فلم يمتلك الحبُ قلبه، فغزله مفتعل لا تحس فيه حرارة الشوق ولا لوعة الحب، فلم يكتب في امرأة مرتين، وإنما كان يحب ما حضر بين يديه، فساعة يحظى بلقاء

(1) الخريدة 181/2.

امرأة يسعد بها في وقتها وربما أعجبته لساعات فكتب فيها شيئاً، ثم إذا مضى وقتها نسيها وراح يبحث عن غيرها، ولعل ما يؤكد هذه الرؤية أن الغزل عنده منصرف إلى الوصف الجسدي للمرأة وما بها من مفاتن منظورة ولا تجد لديه حبا للصفات النفسية عند المرأة، فالعشق الصادق يكون للروح لا للجسد وهو مفتون بالأجساد ووصفها، متيم بالأرداف والخصر والوجه والعيون والمراشف، فمن يحب كل النساء لم يعرف الحب، ومن اهتم بالجسد وأحبه لن يعرف العشق ولم يقع في شراكه.

ومن خلال هذين الملحظين يمكن وصف غزله بأنه غزل جسدي صريح، ليس به العفة التي نراها عند شعراء الغزل العفيف الذين تحرقهم نار الشوق وتقتلهم لوعة الحب،وها هو ذا يتغزل في إحداهن ولا يتجاوز وصفه إياها أكثر من نهديها الكبيرين وخصرها النحيل وردفها الثقيل يقول واصفاً:

شكوت لها نَهْدَين في الصدرِ باعَدَا ** مُعانِقَها عن ضَمِّهِ وَهْوَ مُغْرَمُ

ولو مَلَكَتْ أَمْرًا لما كانَ خَصْرُها ** على ضَعْفِه من رِدْفِها يَتَظَلَّمُ([1])

ويبدو أنه كان مغرماً بالأرداف الثقيلة ومعجبا بها يقول في أخرى:

وإنَّ غَزَالاً كالغزالةِ وَجهُهُ ** ضعيفُ القوى يَسْطُو بليثٍ أَبي شِبْل

ومَنْ خَصْرُهُ المهضومُ كَيْفَ مع الضَّنَا ** ينوءُ بِرِدْفٍ باهظٍ حَمْلُهُ عَبْلِ([2])

كما نراه محباً للغواني/ مغرماً بمجالسهن، فيحكي لنا في شعره عن إحدى لياليه التي قضاها مع إحدى الفتيات الجميلات التي فاقت بجمالها البدر، فجيدها مزين بعقد رائع الجمال وهي تسقيه من رضابها ما هو أجمل من الخمر، وهناك حوله جميلات أخريات كل واحدة منهن لها جمالها الخاص، فمنهن الوردة ومنهن النرجس حتى أنه قسم فؤاده بينهن فيقول:

كم ليالٍ نَعِمْتُ فيها بِخَوْدٍ ** فاقتِ البدرَ في السَّنَا والسَّنَاءِ

(1) الخريدة 2 /183.

(2) الخريدة 182/2.

ذات جيـــدٍ كـــالريمِ حَـــلاَّهُ عِقْـــدٌ ** حَـــلَّ فيـــه بحـــلٍّ عَـقـْدِ عَـزَائي
وترشَّـــفْتُ مـــن رُضـــابٍ بَـــرُودٍ ** فـــاقَ طَعْـمَ السُّـــلافَةِ الصَّـهْبَاءِ
وتنزهـــتُ فـــي ريـــاضٍ حِسَـــانٍ ** غانيـاتٍ عَـنْ صَـوْبِ مـاءِ السـماء
بَـــيْنَ وَرْدٍ وَنَـــرْجِسٍ وأَقَـــاحٍ ** ففـــؤادي مُقَسَّـــمُ الأَهْـــوَاء

وهو حينما يتشوق "لسعدى" فإنه لا يتشوق إلى حبها وقلبها وإنما يشوقه مراشفها العذاب، فهو يرى العذابَ في بعده عن جسدها وليس عن روحها يقول:

أَلاَ مَـــنْ مُبْلِـــغٌ سُـــعْدَى بـــأَني ** ظَمِئْـتُ إلـى مراشـــفها العِـــذَابِ
فـــإني والمهـــيمنِ مُنْـــذُ بـــانَتْ ** رأيـتُ الشَّـــوْقَ مـن أَلَـم العَـذَابِ([1])

ومن قصيدة أخرى يمدح فيها الملك العادل بدأها بالغزل، و يتذكر عصر الصبا والشباب حين كان يقضي أغلب وقته في صحبة الغواني لا يمل منهن بل يسعد بعذابه معهن وهاك الشيب خط مجراه في رأسه وبلغ من العمر أرذله، وذهب الشباب وأخلق ثوبه، ولا أمل في عودته،،ولن تجدي الأماني بعود الشباب ولكنه دائما يتذكر أيام شبابه حين فعل كل ما تمنى ونال ما ابتغى..يقول:

مَنْ لـي بعَـــوْدِ شَـبَابٍ مُنْـذُ فـارقني ** لـم أَلْـقَ مـن عِـوَضٍ عنـــه ولا بَـــدَلِ
لبســـتُ بـــرْدَ الصِّـــبَا حينـــاً بجِـــدَّتِه ** فـأَخْلَقَ البُـرْدُ حتـى صِـرْتُ فـي سَمَلِ
كـم ليلـةٍ نِلْـتُ مـن نَيْـل المُنَـى وَشَـفَت ** بذلك الوَصْلِ ما بالصدر من غُلَل([2])

ولا نعدم عنده وصفاً لتشوق يبدو صادقاً فيمن يهوى ويحب، فهو كثير الشوق لمن نَعِمَ بقربهم وأمضى معهم ليالي ذاق فيها متعة القرب وأنسِ المودة، ولا أرى في شوقه هذا شوق المحبين المخلصين، وإنما هو شوق لمن نال منهن متعة وحظي منهن برفقة، فأراه يتشوق لمتعته الفائتة وليس لمحبوبة غائبة، من ذلك

(1) الخريدة 166/2.

(2) الخريدة 180/2.

حين يقول لو أنني كنت أعلم أنني ألقي كل الشقاء لبعدكم لما فارقتكم أبداً ولظللت بقربكم ما حييت يقول:

لـــــو كنـــتُ أَعْلَـــمُ أننـــي ** أَلقـــى لبُعـــدكِ مـــا لقيـــتُ
لأَقَمْـــتُ عنـــدكِ مـــا بقيـــتِ ** علـــى الحيـــاةِ ومـــا بقيـــتُ
فلـــئن نَـعِمْـــتُ بقـــرْبكمْ ** فبِنـــأْيِكُمْ عَنِّـــي شَـــقِيتُ([1])

وإن كان طول البعد يقتل الشوق ويميت الحب عند بعض الناس، إلا أنه يرى أن بعده عمّن يحب زاد حبه وقربه ممن أحب... يقول:

حللـــتَ بقلبـــي فعينـــي ** عليـــكَ تَحْسُـــدُ قـــلْبَا
فمـــا أرَى البُعْـــدَ إلاَّ ** قـــد زادنـــي منـــكَ قُرْبَـــا([2])

كما أنه يجد الشوق مزعجا لقلبه فقد رمى به في فجاج الفلوات يجوبها حزيناً باحثاً عن أحبته يقول:

قد طوىَ بعدَ أَرْضِكم سُوقَ شوقٍ ** ظـــلَّ للقلـــبِ مُزْعِجـــاً مُسْـــتَحِثَّا
وَرَمَـى بـي فجـــاجَ كـــلِّ فـــلاةٍ ** جُبْـتُ حَزْنـاً مِـنْكُمْ إليـه وَوَعْثَـا([3])

وفي المعنى ذاته يقول:

إن يُمْـسِ قلبـي وهـو صـبٌّ نـازحٌ ** فـلأنّ مـن يهـواهُ عنـهُ نـازحُ
فجـوارحي وجـداً عليـه جَرِيحـةٌ ** وجـوانحي شَـوْقاً إليـهِ جَـوَانح([4])

ودفعه الشوق إلى أن يكتب لمن يهوى كتاباً بثه فيه أشواقه ووصف لوعته ولو استطاع لكان هو الكتاب حتى يشكو إليه بنفسه دونما وسيط حتى يسمع جوابه... يقول:

---

(1) الخريدة 171/2.
(2) الخريدة 166/2.
(3) الخريدة 172/2.
(4) الخريدة 173/2.

كتبـــتُ ولـــو أَنَّنـــي أَسْـــتَطيعُ ** مـن الشـوق والوجـدِ كنـتُ الكتابـا
بحيـــــثُ أَبُثُّـــكَ مِنِّـــي إليـــك ** حـديثي وأَسْـمَعُ مِنْـكَ الجوابـا (1)

وها هو ذا قد أوصله الشوق إلى حالة يرثى لها فقد أصبح نهاره كالليل بعد فراق من يهوى يقول:

إن نهـــاري مـــن بعـــد فرقتـــه ** كالليـــل هـــذا بـــذلك مشـــتبه (2)

وفي هذا الفلك من الشوق تدور أبياته الغزلية، فهو يتشوق إلى متعته التي غابت عنه، فقد كان ينال من السرور ما ينال بقرب من يهوى، فإذا ما غابت عنه أحس بفقد السرور وغياب المتعة فتشوق إليها وذاك دليل على عدم وقوعه في تجربة حقيقية وحب صادق، ومن ذلك ما نراه في تشوقه إلى مغنية رآها فأعجبه منها صوتها وجمال خدودها، فقد نال بعض السرور بقربها فلما نأت ذهب سروره فتشوق إليها... وقال:

قَمَـرٌ ولكـنْ فـي الغنـاءِ تخالُهـا ** قُمْـرِيَّةً قـد غَـرَّدَتْ بريـاضِ
والخـدُّ وَرْدٌ والبنفسـجُ فَوْقَـهُ ** آثـارُ تقبيـلٍ بـبعضِ عِضَـاضِ
كَـانَ السـرورُ بهـا فلمـا أَنْ نَـأْتْ ** ذَهَـبَ السـرورُ وكـلُّ آتٍ مـاضِ (3)

هكذا نخلص إلى أن الشاعر اهتم بالوصف الجسدي للمرأة أكثر من اهتمامه بالروح والمشاعر لذلك لم يكن غزله عفيفاً بقدر ما كان صريحاً، وذلك راجع إلى تشتت قلبه بين الغواني،فهو يحب ما حضر أمامه من النساء لذلك نرجح أنه لم يعرف يوماً الحب الحقيقي ولم يعش تجربة حقيقية لذا جاء الغزل على هذا النحو.

ثالثاً: (الرثاء)

(1) الخريدة 167/2.
(2) الخريدة 185/2.
(3) الخريدة 176/2

ذكر العماد أن لشاعرنا ديوان شعر رآه بنفسه وقد تخيّر منه القليل في كل غرض شعري، وللأسف الشديد ضاع الديوان ولم يبق منه إلا ما اختاره العماد وضمَّنه كتابه الخريدة.

وقد اختار في فن الرثاء من ديوان (علي بن عرّام) ثلاثة نماذج أولها في رثاء ابن عمه (هبة الله بن عرّام) وثانيها ينشد على المقابر وثالثها في رثاء أحد العلويين، وجاء النموذج الأول مبتوراً من قصيدة طويلة ساق منها العماد سبعة أبيات فقط ومع ذلك فالأبيات تنطق بمعانٍ كثيرة يأتي على رأسها (الافتقاد) وهو يفتقدابن عمه في موضعين:

أولهما: حين تنزل المصائب وتحل الأزمات فلا يجد هذا السند القوي والركن الشديد ليأوي إليه حين تبسط الملمات أجنحتها عليه، ويسود الظلام الحالك من فرط الشدائد.

وثانيهما: حين يفقد صوت شعره في ميدان القريض وقد كان هو القمر بين النجوم من الشعراء يقول:

مَـنْ لسـودِ الخطـوب غَيْـرُكَ يُجْلِيهَـا ** وقــد غــابَ منــك بَــدْرٌ منيــرُ

مـن يحـوكُ القـريضَ مِثْـلَكَ يُسْـدِيه ** علــى خِبْــرةٍ بــــه وَيُنِيــرُ([1])

وبعد غياب هبة الله عن ميداني الذود والقريض، يرى ابن عرّام أنه لا خير في الحياة بعده، ويتمنى لو يزوره وافد الردى، فالموت أصبح خيراً من الحياة، وذاك أنه يظن أنه يسبق ابن عمه إلى الموت ويكون مرثياً لا راثياً.. يقول:

لـيس فـي العـيشِ بَعْـدَ فقْــدِك خَيْـرٌ ** حَبَّــذَا وافــدُ الــردى لــو يَــزُور

كـــان ظنِّـــي إذا المنـــايا انْتَحَتْنَـــا ** أَنّـــنِي أَوَّلٌ وأَنـــتَ أخـــــير

وما أروع الكناية في قوله "وافد الردى لو يزور" فكنى لملَك الموت بوافد الردى وسمى قبض الأرواح زيارة، وهذا الزائر لا عمل له إلا قبض الروح ولا يزور إلا مرة واحدة، فهو يتعجل هذه الزيارة اليتيمة حتى يفارق الحياة التي لم يعد فيها خير بعد وفاة ابن عمه، ثم يذكر خيانة الدهر له حين أمَّنه على ابن عمه، بل كان آمن ما في الوجود ولكن لا سبيل إلى مغالبة الأقدار، ثم يتساءل كيف السلوان على فقده وقد انطوى القلب على جوى ونار تضطرم ؟.. فيقول:

خـاننـي الـدهرُ فيـه آمَـنَ مـا كنـتُ ** عليــه وعَــزَّني المَقــدُورُ ([2])

كيـف لـــي بالســـلوِّ عنـــه وَطَـيُّ ** القلــبِ مــن فَقْــدِهِ جَــوًى مَنْشُــور

ويختتم قصيدته كعادة الشعراء بالدعاء للقبر بالسُقيا، ولكن ليس سُقيا الأمطار وإنما سُقيا ندى من يسكن القبر، ففي كرم ساكن القبر ونداه ما يغنيه عن السقيا من الأمطار، وهو لا شك معنى جديد مبتكر.. يقول:

فســـقى قبـــرَه نـــداه فَفِيـــهِ ** لثـــراهُ غِنًـــى وَرِيٌّ غَـــزِيرُ

(1) الخريدة 176/2.

(2) في الطالع: وغرني.

ويحشد شاعرنا ألفاظ السقيا في هذا البيت بشكل يثير الانتباه، ليؤكد على أن من يسكن القبر في غنى عن سقيا الأمطار لما له من خصال حميدة تملأ قبره ريًّا من ذلك. سقى – نداه – غنى – ريّ غزير).

استخدم الشاعر الفعل الماضي (سقى) أي أن الأمر قضى وانتهى إيماناً من الشاعر بوعد الله للصالحين بأن يجعل قبورهم من رياض الجنة، وهو يوقن بصلاح ابن عمه.

* والنموذج الثاني هو أيضاً بداية قصيدة طويلة اختار منها العماد أربعة عشر بيتاً من أولها، وهي ليست رثاء بالمعنى المعروف، فهو لا يرثي فيها شخصاً بعينه وإنما يرثي فيها الإنسان بشكل عام، وهي تكاد تكون نظرة شاملة لمعنى الحياة، وتكاد تكون حكماً ونصائح، واعترافاً بعجز الإنسان أمام الموت، ووقوفه بلا حول ولا قوة أمام هذا المترصد بنا منذ لحظة الميلاد، والذي لا بد من لقائه في موعد محدد لا يعلمه إلا الله.

وبهذا المعنى الأخير يبدأ شاعرنا قصيدته فيقول:

الـــرَّدَى للأَنـــــامِ بالمرصـــــادِ ** كـــلُّ حـــيٍ منـــــه علـــى مِـــيعادِ([1])

ثم يتساءل كيف يرجو الإنسان الثبات والاستقرار في حياة مبنية على التغير والتقلب فهي تنقلب من شيء إلى ضده، فبعد الموت الحياة، وبعد الغنى الفقر، وبعد الصحة المرض وهكذا نجد بعد السرور الإساءة وبعد الوجود البلى يقول:

كيـــفَ يُرْجَـــى ثبـــاتُ أَمْـــرِ زمـــانٍ ** هـــو جـــارٍ طبعـــاً علـــى الأَضـــداد

فـــإذا ســـرَّ ســـاءَ حتمـــاً وَيَقْضِـــي ** بـــوُجـــــودٍ إلـــى بِلـــىً ونَفَـــادِ

ثم نراه يصف الحياة بأنها ليست إلا (ساعة) كتلك الساعة التي يرتاح فيها الركب المسافر المجد في سيره ثم يواصل سفره وترحاله.

وهو يكرر هذا المعنى أكثر من مرة ففي هذه القصيدة التي بين أيدينا يقول:

نحـــنُ فـــي هـــذه الحيـــاة كَسَـــفْرٍ ** ربمـــــا أُعْجلـــــوا عـــــن الإرْوادِ

(1) الخريدة 174/2.

عَرَّسُـــوا ســـاعةً بهـــا ثـــم نـــادى ** بالرحيـــلِ المجـــدِّ فـــيهمْ مُنـــاد

والنموذج الثالث في الرثاء، يقول في نهايته:

نحـــن فيهـــا مثـــل ركـــب أنـــاخوا ** ســـاعة ثـــم أرهقـــوا بانزعـــاج([1])

فما الحياة – كما يراها – إلا ساعة يرتاح فيها ركب مسافرون ثم ينادي فيهم المنادي طالباً الإسراع إلى السفر مرة أخرى.

ويعود بنظرة خاطفة فيبصر هؤلاء الآباء والأمهات الثكالى الذين فقدوا أولادهم وهؤلاء اليتامى الذين حرموا حنان الأم وعطف الأب بعدما اغتال الزمان آباءهم وتركهم لكل يد تبطش بهم أنّى ذهبوا، لذا فهو يرى أنه لا جدوى من الخصام والمشاجرة ولا فائدة من الحسد فالكل ذاهب إلى مصير محتوم ونهاية واحدة يقول:

كـــــم أَبٍ والـــــهٍ بثُكْـــلِ بَنيـــهِ ** كـــم يَتـــيمٍ فينـــا مـــن الأوْلادِ

فعَـــــلامَ المُشـــــاجَرَاتُ وفيمـــــا ** ولمـــــاذا تحاســـــدُ الحُسَّـــــادِ

ثم ينكر دعوى الذين يدعون أنهم أصحاب أرض وملاك عقارات وأنهم ورثوها عن آبائهم وأجدادهم!! ويصفهم بالسفاهة وعدم السداد، والحقيقة عكس ذلك فالأرض هي التي ورثتهم عن آبائهم وأجدادهم فقد ذهب الآباء والأجداد إلى الموت والبلى وبقيت الأرض ومن تملكه اليوم سيذهب غداً و سيأتي مِنْ بعده مَنْ تملكه الأرض يقول:

يَـــدَّعي المـــرءُ إرْثَ أَرْضٍ وَدارٍ ** سَـــفَهاً غيـــرَ لائـــقٍ بالسَّـــدادِ

وهـــو مَوْرُوثُـــها إذا كـــان يَبْقَـــى ** وهـــي تَبْقَـــى علـــى مـــدى الآبـــاد

ثم يقرر هذه الحقيقة المؤكدة فالإنسان فرع لأصل قد ذهب، ولا بقاء لفرع ذهب أصله، فإذا كان الأهل والأقارب قد راحوا فلابد أن تلحق بهم في وقت قريب، ولا مكان نذهب إليه إلا القبور فهي بيوتنا التي سنضطجع فيها ولا وساد لنا فيها سوى التراب يقول:

---

(1) الخريدة 172/2.

وإذا الأَهْـلُ والأَقَـارِبُ والأَحْسَـابُ ** راحـوا فأنـتَ فـي الإثْـرِ غـاد

فـالقبورُ البيـوتُ مَضْـجَعُنا فيهـا ** ومـا إنْ سِـوَى الثَّـرى مـن وِسـاد

فالقصيدة حديث عن هذه الحقيقة التي لا يكذبها أحد، ساق فيها هذه الحكم، والأمثال وأكد على المصير المحتوم الذي لا مفر منه ولا سبيل إلا إليه.

وهذا النموذج الثالث جاء في خمسة أبيات، ويبدو أنها بداية لقصيدة طويلة ضن العماد أن ينقلها إلينا كاملة، ولعل السبب في ذلك أنها كانت في رثاء أحد العلويين - كما ذكر العماد - فلم ينقل شيئاً مما يخلد ذكر العلويين بل اكتفى هنا بافتتاحية القصيدة والتي يتحدث فيها ابن عرّام عن حقيقة الموت بشكل عام، فهو يقول إن كل إنسان سوف يرد حوض الموت ولن ينجو منه أحد سواء أكان يعيش في قصر أو بقفر، فالحياة متاع الغرور وسراب فجاج، وإن أضحكت أبكت وإن حلت أوحلت بمرها الأجّاج، ومن فيها ركب استراحوا ساعة ثم قاموا إلى سفرهم مسرعين.. يقول:

مَـوْرِدُ المـوتِ واضـحُ المنهـاجِ ** لـيس حـيّ مـن الحِمَـامِ بنـاجِ

وسـواءٌ لـديـه ثـاوٍ بِـقَـفْـرٍ ** أوْ بقصـر مُشَـيَّدِ الأَبـراجِ

إنمـا هـذه الحيـاةُ غُـرورٌ ** كسـرابٍ بـدا لنـا فـي فِجَـاجِ

تُثْبِـغُ الحلـوَ مَـن جَنَـى عَيْشِـها الحُلْـوِ ** بِمُـرٍ مـن الـرزايـا أُجَـاج

نـحـنُ فيهـا كمثـلِ ركـبٍ أَنـاخوا ** سـاعةً ثـم أُرْهِقـوا بانزعـاج([1])

هكذا نرى رثاءه في معظمه لا يعبر عن حزن عميق وألم كبير لفقد من يحبهم ويهواهم وإنما جاء رثاؤه الذي بين أيدينا حديثا عن الموت بشكل عام، وكأنما هي حكم ومواعظ يعتبر بها المعتبرون وأولو الأبصار.

رابعاً: " الوصف "

يرى كثير من النقاد أن أجود الوصف هو الذي يستطيع أن يحكي الموصوف حتى يكاد يمثله عياناً للسامع، وذلك بأن يأتي بأكثر معاني ما يصفه، وبأظهرها

(1) الخريدة 172/2.

فيه، وأولاها بأن تمثله للحس"([1]) ولذا قال صاحب العمدة: "أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا"([2]) ولكن يزداد الوصف روعة وجمالاً إذا ما وصف لنا الشاعر إحساسه إزاء ما يصف، فإذا أهمل الشاعر إحساسه تجاه ما يصف فهو مثل مصور يرسم بريشته ما يراه، أو كمن يحمل آلة تصوير ليلتقط صوراً لا دخل له فيها ولا عمل له في شكلها، ولكن حينما يصف الشاعر إحساسه تجاه ما يراه يحظى بالتقدير والإعجاب من القراء والنقاد، وليس كل شاعر مجيد في كل وصف – إلا من رحم ربي – فمن أجاد في وصف الطبيعة ربما لا يجيد في غيرها من الحروب أو المجالس وغيرها، وقد عدد ابن رشيق طائفة من الشعراء أجادوا في بعض نواحي الوصف كامرئ القيس في وصف الخيل، وطرفة في نعت الإبل والشماخ في وصف الحُمُرِ الوحشية والقسي، والأعشى في وصف الخمر، وابن المعتز وأبي نواس في الصيد والطرد"([3]).

ويتنوع الوصف ما بين وصف للطبيعة، ووصف للحيوان والنبات، ووصف لمخترعات الحضارة وألوان المدنية.

ويمكن القول إن الشعر في مجمله يمكن أن يَصُبَ في باب الوصف، فهذا الذي يمدح ما هو إلا واصف لممدوحه وخصاله، وما الراثي إلا واصف لخصال من يرثى وواصف لإحساسه تجاه فقده وذاك الذي يتغزل ما هو إلا واصف لجمال محبوبته وخصالها وإحساسه تجاهها، وما الهاجي إلا واصف لتلك الصفات السيئة التي يراها فيمن يهجو، وهكذا فقد يمكن أن يكون الشعر كله وصف لما يراه الشاعر ولما يحسه تجاه ما يرى.

وعلى الرغم من قلة ما بأيدينا من شعر علي بن عرّام نجد في هذا القليل غير قليل من الوصف الجيد المتنوع، فهو يصف لنا الطبيعة الغناء والرياض الحسان ويصف البلاد الجميلة والمجالس الرائقة، والقيان الفاتنات، والحروب والفتوحات كما يصف المخترعات الحديثة في عصره.

---

(1) راجع نقد الشعر ص41 ويتيمة الدهر 123/3 والعمدة 226.

(2) العمدة 266/2.

(3) السابق 227/2.

لقد عاش شاعرنا في عصرين مختلفين كل الاختلاف، عاش دولة الفاطميين بمذهبها الشيعي الإسماعيلي وما فرضته تلك الدولة من أنظمة وقوانين، كما عاش بداية دولة الأيوبيين السنية المذهب وما لها من أنظمة وقوانين تختلف عن سابقتها في أشياء كثيرة، بل و حاربت كل ما هو شيعي وحازت النجاح في كثير من الأحايين.

وشاعرنا لا يملك من الدنيا إلا موهبته الشعرية التي هي مصدر رزقه وقوته وحينما يتوجه بتلك الموهبة إلى ممدوح فإنه يدرس شخصيته وميوله ليعرف كيف يمدحه ويحصل منه على مبتغاه، وها هو ذا يتوجه مادحاً الملك المعظم سلطان اليمن شمس الدولة توران شاه بن أيوب، ولعلمه بمدى حب ممدوحه لدمشق وبلاد الشام آثر أن تكون قصيدته في معظمها وصفاً لدمشق وما حولها من القرى وبدأها بقوله:

أرقتُ لبرقٍ في الدُّجُنَّةِ مشبوبِ ** ودمعِ سحابٍ ناشىءٍ منه مسكوبِ
فَمِنْ قلبِ صبٍ لَفْحُهُ وَخُفُوقُهُ ** كما غَيْثُهُ مِنْ مَدْمَعٍ منه مصبوبِ
ولم أَرَ ناراً من مياهٍ وَقُودُهَا ** أَلا إنَّ هذا من فُنون الأعاجيب([1])

لقد أصيب شاعرنا بالأرق والرعب حينما شاهد برقاً قوياً أضاء ظلام الليل الأسود بنوره الخارق البارق، وتبع ذلك هطول أمطار غزيرة ما هي إلا دموع سحاب هطال ممطر، ولكن ليس البرق برقاً ولا المطر مطراً، وإنما البرق هو خفوق قلب محب عاشق ضربه الهوى بسهامه وأشعل في جسده نار الهوى وحريق العشق، كما أن هذا الغيث الهاطل ما هو إلا دموعه المتصببة من مدامعه لفرط حبه وشده هواه، إن ذلك من العجب العجاب،فكيف يكون الماء وقوداً للنار المتأججة؟ ولكن الإجابة بَيِّنَةَ فما هي إلا نار العشق تزكيها دموع المحبين.

ثم راح يشيد بهذه البلاد الجميلة التي يعشقها ممدوحه ويصف ما فيها من بديع الجمال وطيب الحُسْن يقول:

وبي جِنَّةٌ من ذكرِ جَنَّات جِلَّقٍ ** وَحَنَّةُ مُشْتَاقٍ وأَنَّةُ مَكْرُوبِ

(1) انظر القصيدة الخريدة 2/169–171.

وفي شرف الوادي وفي النيربِ ([1]) ** اغتدتْ مآربُ للغرِّ الكرامِ الأَعاريب
فيا بَرَدى هل جُرْعَةٌ منك عَذْبَةٌ ** لتبريدِ حَرٍ في الجوانحِ مشبوب
ويا نهرَ ثَوْرا([2]) قد أَثَرْتَ صَبَابةً ** لقلبٍ شجٍ من لوعةِ الحبِّ مَنْدُوبِ
وهل لسراةِ الناسِ عِلْمٌ بأنني ظمئتُ إلى ماءٍ بباناسَ مَشْروبِ([3])

يشرع ابن عرام في وصف دمشق وما حولها كي يسترق بها قلب ممدوحه، فيعزف على الوتر الذي يعشقه الممدوح ويطرب له، ويأخذ من الجناس رفيقاً ومعيناً فيذكر مع اسم كل قرية أو مكان فعلاً مجانساً له ليلهب التأثير النفسي لممدوحه، كما أنه لا ينسى وصف إحساسه تجاه ما يتشوق إليه من هذه البلاد،فيتحدث عن شوقه هو لا شوق ممدوحه وعن حبه لهذه البلاد لا حب ممدوحه، ففي البيت الأول يجانس بين ثلاث كلمات "جِنَّة – جنات- حَنَّة" فجِنة هي نوع من الجنون وهو غياب العقل، وجنات جمع جَنَّة وهي الحديقة، وحَنَّة واحدة الحنين اسم مرة، فهو يصاب بنوع من الجنون إذا تذكر هذه الجنات المورقة في "جلق" ويغلبه الحنين والشوق وتصيبه أنَّات الكروب لفراق هذه الجنان، ويتمنى لو عاد إليها، ففي شرف الوادي والنيرب أفضل مكان للعيش ولا يقصده إلا الكرام الأعاريب، ثم يأخذ من اسم نهر "بردى" معنى يطوف حوله ويتساءل هل لي بجرعة ماءٍ عذبة باردة من بردى أبرد بها حَرَّ الجوانح الملتهبة شوقاً، ويعود للجناس في قوله "ثورا و أثرت" فنهر ثورا أثار الصبابة في قلبٍ شجيٍ أصابه الحب في مقتل فأصبح يُنْدب على الملأ، وفي البيت الأخير يجانس بين "الناس وباناس" ويسأل هل يعلم هؤلاء الناس الذين يسرون ليلا أنني في أشد حالات الظمأ والعطش إلى ذلك الماء الرائق الرائع ببناس، ويكمل ويقول:

وهــا أنــا مستسـقٍ لِمـزَّةَ مـزْنَةً ** كَفَتْها عُيـونٌ مَدُّها من أَهاضيب([4])

(1) النيرب: قرية بدمشق.

(2) نهر ثورا: نهر بدمشق.

(3) باناس: قرية بالشام.

(4) مزنة: قرية غناء وسط بساتين بدمشق.

ويـا ذا الجـلالِ احـرس حَرَسْتَا فَحُسْنُها ** شـــفاءٌ لمـهـمـومٍ ودآء لمطبوب([1])

ودومـــةُ دامَ العيشُ حلـواً بربعهـا ** وواهاً لـه لو أنــه غيـرُ مسـلوب([2])

وفـي بـرزةٍ مكحـولةُ الطـرفِ بـرْزَةٌ ** تُصَبِّرُني للوجد منها، وتُغْرى بي([3])

ويـا حســنَ ولــدانٍ تــرَامَوْا بطـابةٍ ** فمـن غالـبٍ عنـد النضــالِ وَمَغْلُـوبِ

وَدِدْتُ حُـلـولي فـي ريـاضـكِ حَـــلَّةً ** وهيهـاتَ أيـن الشـامُ مـن بلـدِ النُّـوبِ

ولا يزال يتخذ من الجناس رفيقاً، ففي البيت الأول جناس ناقص بين "مُزْنة و مِزة" فالأولى هي القرية التي يتشوق إليها والثانية يقصد بها سحابات المطر، فهو يطلب من الله في صلاة الاستسقاء أن يمنّ بفضله على قرية مِزة بسحابة هطالة، ولكن حتى لو بخلت المُزنة بالماء فإن العيون المتشوقة تذرف دمعاً غزيراً فيه الغناء عن ماء السماء أو هي عيون الماء التي تستمد ماءها من أهاضيب "جمع هضبة"، ثم يستمر في دعائه طالباً من ذي الجلال –جل وعز- أن يحرس قرية "حرستا" ويبقي على جمالها وحسنها فإن حسنها شفاءٌ للهموم ودواء للعليل، ولا ينسى الجناس في "احرس و حرستا" كما يبدأ به بيته التالي في قوله: "ودومة – دام" العيش حلوا في ربوعها الغناءة، التي يدعو الله أن تدوم الحياة فيها رغيدة هنيئة، ويتمنى ألا تسلب هذه الحياة، ولكنه على يقين أن دوام الحال من المحال فهو يتمنى ويعلم أنها أمنية لن تتحقق، ثم يعرج على بلدة أخرى هي "برزة" له فيها غانية مكحولة الطرف برزَةٌ لا تزال تعلقه في حبال الهوى فلا ينال منها نوالاً ولا تقطع حبل مودتها، بل هي تماطله في حبها، ثم يشيد بجمال ولدان يلعبون في طابة فمنهم من يَغْلِب ومن يُغْلَبُ، وبعد ذكره لكل هذه البلاد الجميلة والقرى الساحرة يتمنى أن يحل رياضها ويسكن في ربوعها، ولكن هيهات فأين بلاد الشام من بلاد النوبة، فالمسافة شاسعة والبون كبير.

(1) حرستا: قرية وسط بساتين دمشق.

(2) دومة: من قرى غوطة بدمشق.

(3) برزة: قرية من غوطة بدمشق.

ثم يذكر لنا بعض قصته مع محبوبته التي تعذبه بحبها وتماطله في هواها وكم هو سعيد بهذا المطال ومستمتع بذاك العذاب يقول:

بنفسيَ من تَجْنِي وأَحْمِلُ عتْبَها ** وَيَعْذُبُ عَيْشي في هواها بِتَعْذِيبي

كظبيٍ يصيدُ الليث قَمْراً فيغتدي ** من الرُّعْبِ مأسوراً بفتكةِ رعبوب

فهي تجني عليه في حبها وتظلمه بهواها، ولكنه يحمل عتابه في قلبه ولا يبوح به لأحد وهو في غاية السعادة بذلك، ويرى مطالها نعمة وعذابه في حبها متعة، وقد كرر ذلك المعنى في قصيدة أخرى حيث قال:

وإذا غريمي غرام لست أفتر من ** أوصابه وعذابي فيه يعذب لي ([1])

ويقول في أخرى إنه راضٍ في هواها بالجور ولا يريد منها عدلا يقول:

رضيت بسلطان الهوى متسلطاً ** على مهجتي في الحكم بالجور لا بالعدل ([2])

ثم يشبهها بظبي صغير ضعيف ولكنه يملك من القوة ما يستطيع به أن يأسر ليثاً، وهذا ما حدث معه فيرى نفسه أسيراً لحبها، عبداً لهواها، ونراه يؤكد على هذا المعنى في قصيدة أخرى حيث يقول:

وإنَّ غَـــزَالاً كالغزالـــةِ وَجْهُـــهُ ** ضعيفُ القوى يَسْطُو بليثٍ أَبي شِبْل

وهي وإن كانت ممنعة صعبة المنال أحياناً فإنها حيناً ترق له وتحنّ عليه بزورة يكون فيها النعيم وراحة القلب يقول:

لئن قَصَّرتْ بالقصرِ عما أَلِفْتُهُ ** وقد كنتُ عنها قَبْلَها غير محجوب

فقد جَسَرَتْ بالجسرِ وهي جَبَانةٌ ** وزارت بليلٍ أَسودِ اللونِ غِرْبيبِ

فهي وإن كانت حبست بذاك القصر حيناً فقد تجاسرت وزارته تحت ستار ليل أسود كلون الغراب، ولكن ماذا حدث حينما زارته وفي أي مكان كان اللقاء؟

---

(1) الخريدة 180/2 (2) السابق نفسه.

(2) السابق 180/2.

يجيب قائلاً:

نَعِمْتُ بـها فـي جَنّـَةٍ عُجِّلَتْ لنـا ** بِجِلَّقَ إِذْ لَهْوِي بها غيرُ مَقْضُوبِ

مغـانٍ غـوانٍ مـن عيـونٍ بسـفحها ** وقيعانِها عن ساجِمِ الغيثِ شُؤْبوب

بنفسـجَهُا غَـضٌّ يخـالـطُ زُرْقَـةً ** كآثـارِ عضٍ قـد عَـلاَ خَـدَّ مَحْبـوبِ

ونَرْجِسُـها المبثـوثُ فيهـا كـأَعْينٍ ** بَدَتْ فاتـراتٍ مـن خَصَاصـةِ تَنْقيب

وقـد غَـرَّدَتْ أَطيـارُهَـا فكـأنّها ** قِيـانٌ يُرَجّـِعْنَ اللحُـونَ بتطـريب

ريـاضٌ نضـيراتٌ تـرَفٌ كأَنّهـا ** سَـقَاها فَـرَوَّاها بَنَـانُ ابنِ أَيّـُوبِ([1])

أَيّـُوب([1])

لقد زارته في الجنة، ولكنها ليست جنة الآخرة وإنما هي جنة عجلها الله لهم في الدنيا في مدينة "جلق" إذ بها اللهو غير مقطوع والسعادة دائمة أبدية، فبها من النعيم والمتع مالا يتصوره عقل، ثم راح يعدد لنا بعضاً من هذا النعيم ويقول:

إن هذه الجنة بها مغان كالغواني الجميلات التي استغنت بجمالها عن كل زينة، وبها أشجارها تسقى بماء من عيونها الكثيرة الفياضة التي تنتشر في سفوحها وقيعانها،حيث سقاها الغيث الهاطل ففاضت على أشجارها بماء رائق زلال، فأنبتت صنوفاً من الأزهار والورود لا مثيل لها ولا شبيه، فهذا بنفسج غض يخالطه زرقة، وذاك لون رائع حين تتناغم الحمرة مع الزرقة، فيشبه آثار التقبيل والعض على خد المحبوب، ويعيد هذه الصورة في مكان آخر ويقول:

والخـدُّ وَرْدٌ والبنفسـجُ فَوْقَـهُ ** آثـارُ تقبيـلٍ بـبعضِ عِضَـاضِ([2])

ثم يصور النرجس بعيون فاترة بدت من خلف النقاب، فهي زهرة حييةٌ ولكنها تملأ المكان بهجة وسروراً، وذاك حينما يتردد صوت الطيور ألحاناً شجية وكأنما هي قيان تغني وترجع اللحون في طرب ونشوة فما أجملها من رياض نضيرات وجنات مورقات كأنما سقاها بيده إبن أيوب شمس الدولة توران شاه.

(1) الخريدة 170/2.

(2) الخريدة 178/2.

وفي القصيدة نفسها يصف وصول جيوش الأيوبيين إلى مصر وقتالهم للفرنج حين نزلوا مصر يقول:

ولما دُعُـوا من مِصـرَ لَبّـوا دعـاءَنا ** على كـلِّ نَهْـدٍ لَيِّـنِ العُنْـقِ يَعْبُوبِ
فـأردَى كمـاةَ الـروم شـدَّةُ بَطْشِـهِمْ ** فهم بـين مطلـولِ الـدماءِ ومطلـوب
فلستَ ترى في عصبةِ الشركِ حاملاً ** صليباً ولا عِلْجـاً لهـم غيـرَ مَصْلوب
وحسـبهمُ ذاكَ الطعـانُ الـذي غَـدَتْ ** بهـم قِصَـداً فـيهم صـدورُ الأنابيـب
وظلَّ عميدُ الـــرومِ من حَذَرِ الرَّدَى ** يَـؤُمُّ طريقــاً بينـهم غيــرَ ملـحوب
ونكَّبَ عن مصـــرٍ وَوَلَّـى بمَنْـكَـبٍ ** جـريحٍ بأنيـــابِ النـــوائبِ مَنْكُـوبِ
وقـد كـــادَ ديـنُ اللهِ يَخْفـتُ نـُـورُه ** ويُرْمَـى بتبـديلٍ وشيـــكٍ وتقلـيب
فحصَّـــنْتُمُوهُ بالأَسِـــنَّةِ والظُّبَـا ** وتصـــعيدِ آراءٍ كَفَتْـهُ وتَصْـــويب
فلسـت تـرى إلا مَحَاريـبَ فـي وغـى ** حَمَوْا بيضـةَ الإسلامِ أَوْفى مَحَاريـبِ

يقول: إن أهل مصر لما نزل بهم هذا البلاء من الفرنج لم يجدوا أحداً خيراً من بني أيوب ليدعوهم لمعاونتهم على قتال الفرنج فدعوهم فاستجابوا لهم ولبوا دعاءهم مسرعين تحملهم خيول أصيلة لينة الأعناق سريعة السير وحينما وصلوا ذهبوا مسرعين إلى حرب الفرنج ومن أول وهلة شدوا على الفرنج فأردوا الأقوياء منهم وأصبحوا ما بين مقتول مطلول في دمه وبين هارب مطلوب للقتل، ولست ترى وسط هؤلاء من يحمل صليباً وإنما تراهم مصلوبين واحداً بعد الآخر، ولا ينسى شاعرنا هذا الجناس الذي يرافقه في قوله (مطلول ومطلوب) وبين "صليب ومصلوب".

ثم يصف هروب قائد الروم الذي لم يجد بينه وبين الموت إلا ملاقاة هؤلاء الجنود فآثر الفرار وراح يبحث عن طريق للهرب وكأنما الموت يتبع خطاه ويطارده من خلفه وهو يهرب في طرق غير معبدة محاولاً النجاة بحياته، فتولى عن مصر هو ومن معه من بقية جنوده تثخنهم الجراح التي أصابتهم بأنياب النوائب، ولا ينسى الشاعر الجناس في قوله (نكب- بمنكب – منكوب) وقوله "بأنياب النوائب"

ويصف ابن عرام ما كانت عليه مصر قبل قدوم بني أيوب إليها، فقد كاد الدين يخفت نوره بكثرة التبديل والتحريف والبدع – وربما يرمي بذلك إلى الفاطميين وما أشاعوه من المذهب الشيعي الإسماعيلي – ولكن الأيوبيين بوصولهم إلى مصر حصنوا الدين بالأسنة والظُّبا، فالدين في حاجة إلى قوة تحميه من الصليبيين، كما أنه في حاجة إلى إبطال هذه البدع التي ابتدعها المبتدعون وذلك ما فعله بنو أيوب فحموا الدين ظاهراً من المشركين وحموه من الداخل بالتصحيح والتوضيح للدين الحق، لذاك لا تراهم إلا جنوداً في ساحة القتال يحاربون أعداء الله، أو عُبَّاداً في محاربهم يذكرون الله،وقريب من المعنى قوله في مكان آخر:

صـفائحُ فـي أَيـديهمُ أَو صـحائفٌ ** فهـمْ بـين كُتْـبٍ تُقْتَنَـى أَوْ كَتَائـبِ

فهم –يقصد بني أيوب- لا تجدهم إلا وفي أيديهم الصحائف وهي الكتب أو الصفائح وهي السيوف لملاقاة (الأعداء) فهم دائما بين عبادة وعلم أو جهاد وقتال.

ونراه في قصيدة أخرى يصف هذه الحديقة الغناء التي جمعته بمحبوبته (ريّا) فيقول:

وعَهْدِي بريَّا وهْيَ شـمْسٌ مُنِيرةٌ ** عَلَتْ غُصُنَا لَدْناً يَميسُ على نَقَا

خَلَعْتُ عِذَارِي وادَّرَعْتُ بحبها ** فَظَلْتُ أسيراً في الحِبَالةِ مُطْلَقا

تُلاحِظُني أَلحاظُها في حديقةٍ ** بها الحسنُ من كلِّ الجوانبِ أَحْدَقا

تمايلتِ الأشجارُ فيها كأنَّما ** سَقَتْها يدُ الأَنواءِ خمراً مُعَتَّقا

وصاحَ فِصَاحٌ في الغُصُونِ فخلتها ** قياناً تُغَنِّي لا حماماً مُطَوَّقا

إذا ما نسيمٌ هَبَّ ألقَيْتُ عَرْفَها ** لمشتاقهِ من مِسْكِ دارينَ أَعبَقا

بها الوردُ غَضٌّ والأقاحي مُفَلَّجٌ ** ونَرْجِسُها يَرْنو إليكَ مُحَدِّقا

تَرَى أصفراً من نُورِها ومَرَائشاً ** وأَدْكَنَ مُخْضرًّا وأَحْمَرَ مُشْرِقَا([1])

كأنّ هديرَ الماءِ عَوْلَةُ لَوْعةٍ ** لصبٍ مَشُوقٍ لا يُطيقُ التَّفَرُّقا

(1) مرائش: جمع مريش وهو البُرُد الموشى بخطوط.

يَفيضُ على تلك الرياضِ انسكابُهُ ** كجودِ ابن شَيْبانٍ إذا ما تَدَفَّقا([1])

فبعد أن يصف (ريّا) بالشمس المنيرة وأنه اتخذ حبها درعاً وأصبح أسيراً في هواها، يصف هذه الرياض التي جمعته بمحبوبته، فهي حديقة اكتملت بها أركان الجمال وأحاط بها الحسن من كل جانب، فأينما توجهت بعينيك لا ترى إلا الجمال في أبهى حلة، فهذه الأشجار تداعبها الرياح فتتمايل بخفة ورشاقة كأنما الأنواء لم تسقها ماءً وإنما سقتها خمراً معتقاً فراحت كالسكارى حين تضربهم الخمر، وفوق هذه الأشجار النشوى تسمع أصوات الحمائم كأنها قيان تغني بأعذب الألحان وأجمل النغمات وإذا ما هب نسيم فحرك أوراقها وداعب أزهارها خرجت منها أزكى الروائح وأجملها تكاد تكون أجمل عبيراً من مسك دارين، وذاك لما تمتاز به من كثرة الزهور وتنوعها، فبها الورد الغض والأقاحي المفلج والنرجس الذي يشبه العيون وكأنه ينظر إليك محدقاً، هذا فضلاً عن كثرة الألوان وتناسقها ففيها الأصفر والموشى وكأنه مطرز والأخضر الداكن والأحمر المشرق وغيرها من الألوان المبهرة، وبين كل هذا تسمع خرير الماء كأنه لوعة المشتاق وأَنَّةُ الصَّبُّ الذي لا يطيق فراق حبيبه، والماء يفيض على تلك الرياض وينسكب كجود ابن شيبان (ممدوحه) إذا ما تدفق بالعطاء على ُمكْرَميه، ويعاود في مكان آخر ويصف بركة وساقية في بستان فيذكر تلك الصورة ويقول:

كأنّ خريرَ الماءِ في جَنَباتِه ** أَنينٌ لمهجورٍ يَحِنُّ إلى وَصْلِ

جَدَاوِلُهُ تَجْري عُيُوناً كأنّها ** نُصُولُ سيوفٍ لامعاتٌ من الصَّقْل([2])

فخرير الماء في جنبات الساقية كأنين من هجره الأحبة ويحن إلى وصالهم، وجداول المياه تفيض بمائها حتى تصير كالعيون التى تفيض فتعكس ضوء الشمس على صفحاتها كأنما هي سيوف مصقلات ومنها قوله:

وفوقَ قوامِ الغُصْنِ طيرٌ لهَزِّهِ ** على أَلِفٍ للقَطْعِ ثُبِّتَ لا الوَصْلِ

(1) الخريدة 179/2.

(2) الخريدة 182/2.

وقــد غَــرَّدَتْ أطيـــــارُهُ فكـأَنّــَها ** قيـانٌ تَطـارَحْنَ الغنــاءَ علـى مَهْـل
وطابقهـا الـدولابُ فـي حُسْـنِ زَمْـرِهِ ** مطابقــةَ الشـــكلِ المـــلائمِ للشـــكل
وأظهـرتِ الأســحارُ ســرَّ نسـيمها ** بوَسْوَسَــةٍ كـالخَطِّ يُعْـرَفُ بالشــكل
فلــذَّ لــنا ذاك النســـــيمُ كأنّــَه ** سِـــرَارٌ تَهــادَاهُ الأحِبّــَةُ بالرُّسْـل

يقول: إن فوق قوام تلك الأغصان طيور ثابتة لا تطير من فوقه كهمزة القطع على الألف لا تفارقها، وهي مثبتةٌ فوق تلك الأغصان لتحريكها وهزها أولاً ثم لتغرد بصوت كصوت القيان اللاتي يغنين على مهل ويتطارحن الغناء،ومن جمال صوت الطيور أصبح للدولاب (الساقية) زمر جميل الصوت أيضاً يكاد يطابق صوت الحمائم المغردة على الأغصان، وليكتمل الجمال راحت النسائم تفوح بأجمل ما عندها و تداعب الأشجار والأزهار فتسمع لها وسوسة هادئة فتفوح العطور الزكية من جنباتها، وهنا طاب لهم المقام ولذت النسائم.

هكذا نرى تنوع الوصف ما بين وصف للطبيعة بجمالها وأشجارها وطيورها وأزهارها وما بين مخترعات حديثة كالدولاب والسواقي وما بين وصف للحرب والقتال وغيرها، فضلاً عن وصف ممدوحه ووصف النساء والقيان والمحبوبات. وقد أجاد الوصف وأحسن التعبير حيث أظهر إحساسهُ حيال ما يصف، فلم ينقل لنا صورة كعدسة آلة التصوير وإنما راح يصف أثر ما يرى على نفسه ومدى تأثير الصورة الخارجية على نفسيته ومشاعره.

خامساً: " الفخر "

إذا كان المدح تزكية للنفوس، وشهادة لها بالفضائل، فمن غير المقبول أن يمدح الإنسان نفسه ويزكيها، قال تعالى: (" فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى] (1) فالإنسان يرى محاسنه وربما لا يرى مساوئه، فلا يجمل بإنسان أن يمدح نفسه إلا في الشعر يقول صاحب العمدة: "ليس لأحد من الناس أن يطري

(1) سورة النجم 32.

نفسه ويمدحها في غير منافرة إلا أن يكون شاعراً، فإن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه"([1])

وأنشدوا فيه القصائد الطوال فخراً بالنفس وبالقبيلة وليس ببعيد عن الأسماع معلقة عمرو بن كلثوم وقصيدة السموأل بن عادياء وغيرهما كثير، فقد انتهج الشعراء الجاهليون هذا الفن واتبعهم الشعراء حتى يومنا هذا.

"وقد استحسن النقاد في الفخر كل ما استحسنوه في المدح" ([2]) ومعنى ذلك أن أن من يفتخر بنفسه أو بعشيرته ينبغي أن يتجه إلى الفضائل النفسية دون غيرها من الأمور العرضية والمحاسن الجسمية" وإذا كانوا قد سمحوا في المدح بالمبالغة وطلبها الممدوحون من المادحين، فقد أحبوا في الفخر هذه المبالغة أيضا".([3])

وما بين أيدينا من شعر (علي بن عرّام) به من الفخر أبيات قليلة، لكنها تخبرنا عن هذا الرجل، وكم كان معتزا بنفسه، ويرى فيها نفساً تستحق أكثر مما هي عليه، ولكنه يصبر على ملمات الدهر ونوازل القدر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا، ومع صبره أحياناً نراه قد يثور على الواقع الذي هو فيه فيترك البلاد ويهاجر من بلد إلى آخر آمِلا أن يجد هناك من يقدر موهبته ويعطيه حقه، كما يرى أنه شاعر مجيد وشعره يستحق الإشادة والذيوع.

ومن فخره بنفسه وما يحمله من فضائل نفسية قوله:

وإنـــي مُحِـــبٌّ للقنـاعـــة والـتّـــقَى ** وللْحِـرْصِ والطبــعِ المُـذَمَّمِ فـــارِكُ

وســاعٍ إلــى صُـنْعِ الجميـل مُسـارِعٌ ** ومُطَّـــرِحٌ فِعْـــلَ القبيـــحِ وتـــــاركُ

ومَـنْ لـي بخِـلٍ فـي الزمـانِ مُصـادِقٍ ** يُســـاهِمُ فـــي بأْســـائه ويشـــاركُ([4])

(1) العمدة 8/1.

(2) العمدة 214/2.

(3) أسس النقد الأدبي 219.

(4) الخريدة 2/ 182.

ومن فخره قوله:

إذا ســـاءَ خُلْـقُ كَريـــمِ الرجـــالِ ** لضـــيقٍ مـــن الحـــالِ أَو نـــكبةِ

فـإنـــي ملـــيءٌ بصـــبرٍ جمـيـــلٍ ** يُحَسِّنُ في عُسْرَتي عِشْرَتي([1])

إن كثيرا من الرجال تحسن أخلاقهم حينما تُفْتح لهم أبواب الرزق وتتباعد عنهم الملمات، وتسوء أخلاقهم إذا ضاق بهم الحال أو أصابتهم مصيبة واعترتهم نكبة فينقلبون على وجوههم فترى فيهم شخصاً آخر غير الذي عهدته، فيجتمع له ضيق الحال وسوء الخلق أو يجتمع لديه المصيبة والجزع، ولكن شاعرنا يرى أنه ليس من هذا النوع وإنما هو رجل صبور على الملمات لا يتغير طبعه ولا يتبدل خلقه إذا نزلت به مصيبة،ولا يجزع لصروف الدهر وإنما صبره يجعله حسن العشرة في سرائه وضرائه، ولا ينسى الجناس في قوله (عسرتي – عشرتي) ولا يزال يفتخر بصبره حتى على محبوبته التي ترى في رقته ضعفاً وفي حلمه هوناً، فيحذرها من فهمها الخاطئ وينبهها أن للصبر حدودا، وللحليم هفوات يقول:

أَغـــرَّكِ مـــن قلبـــي انعطـــافٌ ورقَّـــةٌ ** علـيـكِ وأَنْ تَـجْـنِـي فـــلاَ أَتَـجَـنّـَبُ

فـلا تـأْمَني حلْمـي علـى كـلِّ هَفْـوَةٍ ** ولا تحسبي أَنْ لَيْسَ لـي عنكِ مَذْهَب

وكيـف وعنـدي فَضْـلـةٌ مـن جَـلاَدَةٍ ** تُعَلِّمُ أَصْـلاَدَ الصَّـفَا كيفَ تَصْلُبُ([2])

يسألها: أغرك أن قلبي عطوف عليك، رفيق في معاملته لك حتى وإن تجنيت عليه وقابل إساءتك بالإحسان؛ لذلك تتيهين في التجنّي، وحسبت أني ضعيف هيّن، كلا إن هفواتك كثرت وربما لا أستطيع أن أتحمل بعضها فأخرج عن حُلمي الذي عهدته، ولا تظني أنني ليس لي سواك، فربما أتجلد بهذا الصبر الذي عندي وأفارقك فصبري وجلدي تتعلم منه الصخور القاسية كيف تتجلد.

(1) الخريدة 171/2.

(2) الخريدة 167/2.

وكما يفخر بصبره وجلده يفخر بشعره وفنه، فنراه يحذر من جاء مادحاً ممدوحه أن يأخذ الحيطة والحذر قبل أن يمدحه فسوف يعرض عليه شعره وينقده.. يقول:

وقافيـــةٍ لَيْسَـــتْ تفـــارقُ مـــرْكَزاً ** وتقطـعُ آفـاق البـــلادِ بـلا عَـدْوِ

لهـا رَوْنَـقٌ مـن قبـل تلحـينِ وَزْنِهَـا ** إذا كان بعضُ الشعرِ يَحْسُنُ بالحَدْوِ

أَمادِحَـهُ اســـتيقظْ فشـــعرُكَ وافـــدٌ ** علـى لُغَـوِيٍ شـــاعرٍ ناقـدٍ نَحْـوِي

فمـن كـان فـي قـولٍ مُجيـداً وقاصـداً ** مجِيداً به فَلْيَحْذُ فـي نَظْمِـهِ حَذْوِي([1])

إن شعره ربما لا يبرح مكانه ولكنه يقطع الآفاق ويجوب البلاد ليس له قدم يسير عليها ولا جناح يطير به ولكن تحمله الركبان وتتناقله الألسنة، فهو شعر له رونق ووزن ونغم من غير أن يلحن ويغنى، فبعض الشعر لا يحسن إلا بالألحان لذلك يحذر من جاء مادحاً ممدوحه بأنه سيسمع شعره وسينقده بعين اللغوي الشاعر الناقد النحوي، فمن أراد أن يمدح وكان شعره جيداً فليحذ حذوه في شعره وليسلك دربه ويتخذه قدوة وإماماً.

وفي قصيدة أخرى أولها شكوى نراه غير راض بحاله وما آل إليه، فقد ضاق به العيش، ولا يجد من يقدر موهبته ولا من يهتم لأدبه، فعزم على الرحيل وترك أسوان ذاهباً إلى بلاد الشام يقول في أولها:

لا تُطِيلـــي علـــى الرحيـــلِ مَلاَمِـــي ** فـلأَمْرٍ إمْـرٍ كَـرِهْتُ مُقامي

أيُّ خيـــرٍ فـــي بلـــدةٍ يســـتوي ذو ** النقصِـ فيهـا بفاضلِ الأَقوامِ([2])

يخاطب محبوبته طالباً منها ألا تطيل عليه اللوم بسبب عزمه على الرحيل، فدافعه إلى الرحيل خطب عجيب وأمر خطير فقد كره مقامه في هذه البلاد التي

(1) الخريدة 185/2.

(2) الخريدة 183/2.

لا خير فيها، فمن يقومون عليها لا يقدرون المواهب الفذة، ولا ينزلون الناس منازلهم، بل الجميع لديهم سواء العالم والجاهل والفاضل وذو النقص، إذاً فإنها بلدة لا أمل يرجى منها ولا فائدة من المكوث فيه ولا بد الرحيل عنها سريعاً يقول:

ضـــاعَ سَـــعْيِي ومـــا أَفَـــدْتُ مـــن الآ ** دابِ فيمـــا مَضَـــى مـــن الأعـــوَامِ

كـــم كتـــابٍ مثـــلِ الكتائـــبِ أَغْنَـــى ** عـــنهمُ فـــي العِـــدا غَنَـــاءَ الحســـام

كـــم بقَـــوْلٍ أَقَلْـــتُ مـــن عَثَـــرَاتٍ ** كـــم كِـــلامٍ أَسَـــوْتُها بكَـــلاَمِ([1])

إنه نادم على سعيه الذي ضاع سدى، فقد بذل من عمره سنوات طوال محارباً في ميدانه الذي يجيد فيه العمل، فكم كَتَبَ من كُتُبٍ أغنت عن الكتائب الحربية، فليست الحرب بالسنان فقط وإنما الحرب أيضاً باللسان والقلم، فكتبه التي خطها كانت تعمل في الأعداء عمل السيوف، وكم أخرجت كلماته القوم من عثرات شداد، وكم من جروح عالجها بكلامه الشافي، حقاً إن للكلمة هذا الأثر الفاعل فحينما تكون كلمة هجائية موجهة للأعداء فلها عمل السيوف المواضي، وحين تكون كلمة اعتذار فإنها تقيل من عثرات جسام، وحين تكون كلمة حانية رقيقة فإنها تعالج الجروح وتعفي الكلوم، وليست هذه الكلمات إلا من أديب حاذق أو شاعر مبدع.

ثم يذكر سبب كراهية مقامه بأسوان فيقول: إن من حكموا أسوان بذلوا له العهود والمواثيق على أن يكرموه ويقربوه إذا ما بذل جهده في مناصرتهم، وإذا بهم حينما استقر لهم الحال وتمكنوا من البلاد والعباد نقضوا عهودهم، ومواثيقهم أضحت سراباً في فجاج، وعاملوه أسوأ معاملة، فهم يريدون الناس عبيداً، وكل من على الأرض خدماً، فأخذوا خيرها ولم يبق إلا الشر، وعم الجهل وأُطفئت شمس العلم، لذا لا مناص من الرحيل، ولا بديل عن السفر فهم لئام هذا الزمان يقول:

وَعدُهُـمْ وَهْـوَ رِفْـدُهُـمْ كَسَـرَابٍ ** أو خيـــالٍ مـــن كـــاذبِ الأحـــلامِ

(1) السابق.

وإذا نَـكْـبَةٌ عَـرَتْـهُـمْ وحَـلّـتْ ** بـذُرَاهُمْ مـن الخُطـوبِ الجِسَـام
فَهْيَ فَوْقي تَحْتي يَميني يَسَـاري ** وَوَرائـي مـن هَوْلهـا وأَمـامي
وإذا الأَمْـنُ عَـمَّهُـمْ واسـتَقَرُّوا ** خِفْـتُ مـنهمْ بـوادِرَ الانتقـام
فـأنـا الـدهـرَ فـي عَـذَابٍ إذا مـا ** سَـخِطوا أوْ رَضُـوا عـن الأيَّـام
ليـسَ دنيـاهـمُ لـغـيـرِ عبـيدٍ ** أَدنيـاءِ النفـوسِ مـن آلِ حـام
حكَّمـوهُمْ فيـها وفيـهمْ فعـادوا ** كـلُّ رأسٍ مـنهم بغيـرِ زِمـام
وتـولّـوْا تدبيرَهـا وهـي كالشـمسِ ** ضـياءً فأصـبَحَتْ كـالظلام
فَدَعُـونـا لا تأخُـذُوا مـا بـأيديـنا ** وَرُوحُـوا يـا ويحكـمْ بسـلام
إنّ فـي الأرض غيرَ أُسْوانَ فـاهْرُبْ ** مـن أَذاهُـمْ إلـى بـلادِ الشـام
فالرحيـلَ الرحيـلَ عنـهم سـريعاً ** فهـمُ مـن لئـامِ هـذا الأَنـام([1])

وفي أخرى نراه يؤكد على هذا المعنى، ويدعو نفسه إلى الرحيل السريع عن أسوان قاصداً بلاد الشام فقد تزايد الظلم بأسوان بشكل غير مقبول، حتى أصبح الموت خيرا من المقام فيها، وليس شاعرنا من ذلك النوع الذي يقبل الظلم ويرضى بالهوان فنفسه الأبية تأبى الظلم وترفض الهوان وهو راحل إلى الأمير مبارك بن منقذ كي ينقذه مما لاقاه من في أسوان يقول:

أقـولُ لنفسـي إن تزايـدَ ظُلْمـُهُمْ ** فِـرَارَكِ مـن دارِ الهُويْنـا فِـرَارَكِ([2])

ويقول مفتخراً:-

سـأَحلمُ عـن خَصْـمي بمجلـسِ لَغْـوهِ ** ولستُ حليماً عنـه فـي حَوْمـة الوَغَى
وأَستُرُ طولَ الدهر فـي الغيب عَيْبـه ** حِفاظـاً ولا أَبْغي رِضـاهُ إذا بَغَى

إنه يتمتع بصفة الحلم حتى مع خصومه، فهو حليم مع خصمه إذا رآه في مجلس لهو ولعب ولكن في ساحة الوغى وميدان القتال فلا حلم ولا هوادة في

(1) الخريدة 184/2.

(2) الأبيات ص 17–18 من البحث ذاته، والخريدة 180/2.

اللقاء، وكذلك هو يستر عيوب خصومه في الغيب ولا يذكرهم بمذمة لا خوفا منهم ولا طلبا لرضاهم وإنما تعففا عن ذكر المساوئ وترفعا منه عن السب والشتائم، ولكن إذا بغى الخصم وتجاوز الحد فلن أبغي رضاه وسينال مني ما يستحقه.

هكذا جاء فخره بالخصال النفسية التي جعلها النقاد هي مناط الفخر وسبيل مدح النفس في الشعر، وقد أجاد الشاعر في فخره حينما ابتعد عن المبالغات ولجأ إلى العقلانية والواقعية في فخره.

سادساً : " الحكمة "

قال رسول الله (ρ) "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة". والشعر لغة الحياة وترجمان الحضارة والصوت المعبر عن آلام الأمم وآمالها في كل مكان وزمان.

وكما قال عمر بن الخطاب:"الشعر ديوان العرب" ولم يكن لأمة من الأمم أن تحتفي بشعرها كاحتفاء العرب بشعرها فهو فنها الأول وذائع مآثرها والذاب عن محاربها، واتخذه المسلمون وسيلة لنشر تعاليم الإسلام ورفع قيمة الجهاد وأحد أسباب الدفاع عن الإسلام وأهله، وقد كان الشعراء دائما حريصين على نقل خلاصة تجاربهم في الحياة في أبيات من الشعر ينقلونها للمستمعين والقارئين علهم يفيدون منها وقد كان من الشعراء من يجعل الحكمة منثورة في كل قصائده، ومنهم من كان يفرد لها القصائد الخالصة ومنهم من كان يكتبها في أبيات مفردة أو مقطعات قصيرة تحمل المعنى المراد في أو جز عبارة وأجمل صورة.

وشاعرنا كان مغرما إلى حد بعيد بالحكمة وكتب فيها الكثير، وربما يرجع ذلك إلى كونه عاش طويلا، وخبر الحياة وعركته، وأصبح مؤهلا إلى أن يدلي بدلوه في بئر الحكمة يغترف منها ويروي رواده، كما تلحظ عند كثير من الشعراء السابقين منذ الجاهلية وهو"كزهير" الذى يعلن سأمه من الحياة حيث يقول:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ** ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لَكَ يَسأَمِ [1]

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى.

وكذلك يقول ابن عرّام:

وإني وإن شـــــبَّبْتُ لا عَنْ شبيبةٍ ** فمَذْهَبُ قومٍ في القريضِ مَضَوْا قَبْلِي

أَأُخْطِىءُ في قَصْدي وأَخْطُو لِصَبْوَةٍ ** وجامعةُ الســـــتين قد جَمَعتْ رجلي([1]) رجلى([1])

ومن أبيات الحكمة عنده قوله:

الـــرَّدَى للأَنـــــــامِ بالمرصـــادِ ** كـــلُّ حـــيٍ منـــه علـــى مِيـــعادِ

كيـــفَ يُرْجَـــى ثبـــاتُ أَمـــرِ زمـــانٍ ** هـــو جـــارٍ طبعـــاً علـــى الأَضـــداد

فـــإذا ســـرَّ ســـاءَ حتمـــاً وَيَقْضِـــي ** بوُجـــــــودٍ إلـــى بِلـــىً ونَفَـــادِ

ومنها:

نحـــنُ فـــي هـــذه الحيـــاة كَسَـــفْرٍ ** ربمـــــا أُعْجلـــوا عـــــن الإرْوادِ

عَرَّسُـــوا ســـاعةً بهـــا ثـــم نـــادى ** بالرحيـــلِ المجـــدِّ فـــيهمْ مُنـــاد

كـــم أَبٍ والِـــــــهٍ بثُكْـــلِ بَنيـــهِ ** كـــم يَتـــيمٍ فينـــــا مـــن الأَوْلادِ

فعَـــلامَ المُشـــــاجَرَاتُ وفيمـــا ** ولمـــــاذا تحاســـــــدُ الحُسَّـــادِ

يَـــدَّعي المـــرءُ إرْثَ أَرْضٍ وَدارٍ ** سَـــفَهاً غيـــرَ لائـــقٍ بالسَّـــدادِ

وهـــو مَوْرُوثُهـــا إذا كـــان يَبْقَـــى ** وهـــي تَبْقَـــى علـــى مـــدى الآبـــاد

وقُصَـــاراهُ أن يُشَـــيَّعَ مَحْمُـــو ** لاً بأَكْفانِـــــــه علـــى الأَعـــوادِ

وإذا الأَهْـــلُ والأَقـــارِبُ والأَحْسَـــابُ ** راحـــوا فأنـــتَ فـــي الإثْـــرِ غـــاد

فـــالقبورُ البيـــوتُ مَضْـــجَعُنا فيهـــا ** ومـــا إنْ سِـوَى الثَّـرى مـن وِسـاد([2])

ويقول:

مـن لـم يَمُـتْ فـي يومـهِ مـات غَـدَهْ ** لا بُـــدَّ مِـــنْ مَنْهَلِـــهِ أَنْ يَـــرِدَهْ([1])

---

(1) الخريدة 182/2

(2) الخريدة 175/2.

مـن تَخِـذَ العلـمَ خَدِينـــــاً عَضَّـدَهْ ** وحـــــــاطَه فـــي دينـــه وأَيَّـدَهْ

فـأَنَسْ بـهِ تُكْـفَ شُـرورَ الحَسَـدهْ ** وَبِـنْ مـن النـاسِ وَكُـنْ علـى حِـدَهْ

وَدَعْ لهـــم دنيـــاهُمُ المُســـــتَعْبِدَهْ ** حـــاجزةً عـــن الرشـــــاد مُبْعِـدَهْ

دونـكَ فعـلَ الخيـر فاسـلُكْ مَقْصِـدَهْ ** مَـنْ عَـرَفَ اللّـــهَ يقينـاً عَبـــدَهْ

يكرر ذات الحقيقة المؤكدة فمن لم يمت في يومه سيموت في غده، ولابد أن يرد المنهل الذي يرده كل حي إلا الله، ثم راح يقدم الحكمة في أسمى معانيها، فليس هناك خل أو صديق أكرم من العلم، فهو يعضد صاحبه ويقويه في دينه ودنياه وحديثا قالوا "وخير جليس في الزمان كتاب" وينصح شاعرنا من أراد الأنس أن يأنس بالعلم فبه يكفى شرور الحاسدين وينصح كذلك بالابتعاد عن الناس وعدم منافستهم على متاع الدنيا الذي يجذب الإنسان إلى الشر ويبعده عن الخير إذا ما انشغل به، لذا فإنه أفضل ما يقوم به الإنسان هو أن يعرف طريق الخير فيسلك مقصده ويسير على دربه، ولا أعظم من خير العبادة لله التي هي الوظيفة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] فمن عرف الله حق المعرفة عبده حق العبادة وعمل الخير وسلك طريقه.، ويقول في أخرى:

وما المرءُ إلاَّ من وَقَي الذمَّ عِرْضَهُ ** وعـــزَّ فـــلا ذامٌ لديـــه ولا غِـشُّ

ولـيس بمـن يرضـى الـدناءَةَ والخَنـا ** طِباعاً ولا مَنْ دأْبُـهُ الهُجْرُ والفُحْشُ([2])

فهو يرى أن الإنسان الحق هو الذي وقى عرضه من الذم وعز على الحاقدين والحاسدين فلم يجدوا إليه سبيلاً للذم، ومن صفاته أيضاً أنه لا يعرف الغش ولا يرضى بالدنية ولا يعرف الهجر والفحش.

سابعاً: " الهجاء "

(1) الخريدة 174/2.

(2) الخريدة 177/2.

يوجد بعض أبيات من الهجاء وردت للشاعر علي بن عرام في الخريدة وهي تشكل جزءاً قليلا جداً من شعره الذي بين أيدينا، ويبدو منها أنه لم يكن محبا للهجاء ولا الفحش في القول، وهذا ما رأيناه في أبيات الحكمة السالفة، فهو يأنف من فاحش القول، لذا هو في هجائه غير مقذع ولا فاحش، وربما يكون هجاؤه ردا على هجاء أو موقف تعرض له ولا تتعدى هذه الأبيات العشرة منها ما تراه ردا على شاعر هجاه فرد عليه ببيتين فقط يصفه بعظم لحيته وعدم تهذيبها فكأنها لحية تيس.. يقول:

شـــــــاعرُنا ذو لحيـــــــةٍ ** قـــد عَرَضَـــتْ وانفَسَـــحَتْ

لحيـــــةُ تـــــيسٍ صَـــــلُحَتْ ** لِفَقْحَـــــةٍ قـــد سَـــــلَحَتْ([1])

ويهجو شخصاً يدعى خالدا ويصفه بالبرودة والثقل ويصوره كأنه خلق من كثيف الأرض اليابس الثقيل البارد يقول:

عناصـــرُ الإنســـان مـــن أربـــعٍ ** وخالـــــدٌ عُنْصُـــــرُهُ واحـــــدُ

فمـــن كثيـــفِ الأَرْضِ تكوينُـــهُ ** فَهْـــوَ ثَقِيـــلٌ يـــابسٌ بـــاردُ([2])

وأفحش ما لديه من هجاء قوله:

يـا سـائراً فـي غيـر نَهْـجِ التُّقَـى ** وســـادراً فـــي غَيِّـــهِ خابِطَـــا

فَحْـــلٌ كمـــا يَزْعُـــمُ لكِنّـــهُ ** بالـــدُّبْرِ للمُـــرْدِ غـــدا لائطـــا([3])

فيرى أن من يهجوه يسير في طريق غير طريق التقى ويدعي خلاف ذلك ويتخبط في مسيرة ولا يعرف الصواب ويصاحب الغواية وبلا فهم، ولعل من دلائل غيه وفساده أنه يدعي أنه رجل وفحل كبير ولكنه يأتي أخبث الأفعال وأقبح المعاصي التي ذكرها في البيت الثاني.

---

(1) الخريدة 171/2.

(2) الخريدة 170/2.

(3) الخريدة 178/2.

المبحث الثالث
السمات الفنية في
شعر علي بن عرّام

اتخذ ابن عرّام مذهبا يجمع ما بين التقليد والتجديد يمكن أن يسمى "الاتجاه المحافظ الجديد" فلم يكن من هؤلاء المقلدين للقدماء السائرين على دربهم سير التابع، وكذلك لم يكن من تلك المدرسة التي ثارت على الموروث الشعري وراحت تجدد وتحدث، في محاولة لإثبات الذات بشكل من الشعر الجديد، وإن كان أبو نواس قد تزعم مدرسة التجديد في عصره وتبعه خلق كثير من الشعراء فإن شاعرنا أخذ أحسن ما عنده وظل متمسكاً بنمط القصيدة التقليدية في الشكل الفني الذي سار عليه القدامى من الشعراء.

ففي موضوعات الشعر نراه ينشد قصائده في الموضوعات التقليدية المعروفة في الشعر القديم مثل: المدح، الغزل، الهجاء، الرثاء، الوصف، الفخر، وغيرها. وإن كان المدح هو أكثر أغراضه الشعرية كماً.

ففي بنية القصيدة نلحظ أنه يسير على نهج القدماء، فالقصيدة عنده تحمل في طياتها أكثر من غرض شعري، فغالباً ما يبدأ قصائده بالغزل ثم يخلص منه إلى المديح أو الوصف أو غيره، وهو من الشعراء الذين يحسنون التخلص من غرض إلى آخر.

وفي إحدى قصائده يقول:

أَطَلْتَ من اللَّوْمِ المُرَدَّدِ والعَذْلِ ** علـيَّ وإنِّـي فـي الغـرامِ لَفِـي شُـغْلِ[1]

فما الحبُّ إلا النارُ والعَذْلُ عنده ** هـواءٌ بـه يزدادُ فـي قُـــوَّةِ الفِعْلِ

رَضِيتُ بسُلطانِ الهوَى مُتَسَلِّطاً ** عَلَى مُهْجَتي في الحكْمِ بالجَوْرِ لا العدْلِ

يبدأ ابن عرام قصيدته بالغزل طالبا ممن يلومه أن يكف عن لومه الطويل له، فلن يستطيع أن يرد عليه أو أن يبرر موقفه لأنه منشغل للغاية وكل اهتمامه منصب على شئ واحد ألا وهو الغرام ولا يخفى أن قوله "وإنِّي في الغرامِ لَفِي

(1) الخريدة 181/2.

شُغْلِ" قد أخذها من قوله تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ][1])

وبعد حديث عن الحب طويل ينتقل إلى غرض آخر هو الفخر وفيه يتحدث عن نفسه مادحا إياها ومنزها لها عن الوقوع في الأخطاء لا سيما وقد جاوز الستين من عمره يقول:

وإني وإن شَـبَّبْتُ لا عَنْ شـــبيبةٍ ** فمَذْهَبُ قومٍ في القريضِ مَضَوْا قَبْلِي

أَأُخْطِىءُ في قَصْدي وأَخْطُو لِصَبْوَةٍ ** وجامعةُ الســـتين قد جَمَعتْ رجلي

فهو في البيت الأول يؤكد على أنه ينتمي إلى مذهب القدماء من الشعراء في قوله: "فمَذْهَبُ قومٍ في القريضِ مَضَوْا قَبْلِي" وذلك المذهب هو الابتداء بالغزل والتشبيب، ثم يتساءل منكراً أيمكن أن أذهب إلى الهفوات،والأخطاء بعد أن تجاوزت العقد السادس من العمر؟

وبعد ذلك ينتقل إلى غرض آخر هو "الوصف" فيصف لنا بركة وساقية يقول:

كـأنّ خريـر المـاءِ فـي جَنَباتِـه ** أَنـينٌ لمهجـورٍ يَحِـنُّ إلـى وَصْـلِ

ولُـــهُ تَجْـــري عُيُونـــاً كأنّهـــا ** جَدَا نُصُولُ سيوفٍ لامعاتٌ من الصَّقْل

ولا يخفى أن نهايات العصر الفاطمي وأغلب العصر الأيوبي كانا عصر حروب ومعارك طاحنة بين المسلمين والصليبيين وبين الدول العربية والإسلامية آنذاك. كل ذلك ألقى بظلاله على نفسية الشاعر حتى في اختيار صوره، فنراه يصف الجداول التي يجري فيها الماء، وتنعكس عليه أشعة الشمس اللامعة بأنها نصول سيوف لامعات.

كما نراه يقول متغزلاً:

إنـــــي وإن كنـــــتُ أَمْضَـــــي ** مـــــن الظُّبَـــــا والرِّمـــــاحِ

فالحـــــبُّ أَنَفـــــذُ منِّـــــي ** يـا صـاحِ فـي الأرْواحِ([1])

(1) سورة يس 55.

ما نجده عند هذه المطالع القوية على غرار كبار الشعراء، فمن تلك المطالع قوله في مدح عز الدين موسك الناصري وكان والي قوص وأسوان.

بَلَغْتَ بِسَعْدِ الجدِّ أَسْنَى المراتبِ ** فناجِ إذا ما شئتَ زُهْرَ الكواكبِ(2)

يقول بلغت أسمى المراتب ولم يكن ذلك محض صدفة وإنما جاء ذلك بالجدِّ والاجتهاد والعمل الدءوب، لذلك فأنت فريد في مكانك تتألق نجما عاليا في سمائك لذا فناج إذا ماشئت الكواكب، ثم يفيض بعد ذلك في مدحه واصفا ممدوحه بأكرم الصفات وأجمل الخصال حتى إذا ما أوفاه – من المديح – ما أوفاه خلص إلى طلب رفده ونواله فقال:

قصدناكَ يا خيرَ الأَنامِ لنكبةٍ ** عرَت أَقْصَدَتْنا بالسهامِ الصوائب

وقد وَثِقَتْ آمالُنَا أَنّ قَصْدَنَا ** جَنَابَكَ يا خيرَ الورى غَيْرُ خائب

وقد عَلِقَتْ أَيْمَانُنَا منكَ ذِمّةً ** وَقَتْنَا مُلِمَّاتِ الزمانِ المُغَالب

وإن لم تَسَعْنَا منكَ عَطْفَةُ راحمٍ ** وإلا فَقَدْ ضاقتْ فِجاجُ المَذَاهبِ(3)

ولا نعدم لديه هذه المبالغات في وصف المعاني وتصويرها فهذا ديدن المادحين وطلب الممدوحين، فالمبالغة تزيد المعنى حسنا وجمالا وقوة لم تكن في غيره مالم تخرج إلى حد الاستحالة(4) وهي تعد من أخص خصائص الشخصية المصرية في كل عصورها "(5)

كما نلحظ هذا الاهتمام البالغ بشعره وتحسينه وكأنه من مدرسة عبيد الشعر الذين يجملون ألفاظهم ويهذبونها، ويقرنون كل بيت بصاحبه وقرينه.. يقول الجاحظ: "وقال الأصمعيّ: زهير بن أبي سُلْمَى، والحطيئةُ وأشباههما، عبيدُ

---

(1) الخريدة 167/2.

(2) الخريدة 168/2.

(3) السابق.

(4) تحرير التحرير 147 والغيث المنسجم 139/1 والفن ومذاهبه في الشعر 153.

(5) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين 2/4.

الشِّعر، وكذلك كلُّ من جَوَّد في جميعِ شعره، ووقف عند كلِّ بيت قاله، وأعاد فيه النَّظَر حتى يُخرِجَ أبياتَ القصيدة كلّها مستويةً في الجودة"([1])

ثم يقول: ومَن تكسَّبَ بشعره والتمس به صِلات الأشراف والقادة، وجوائزَ الملوك والسادة، في قصائد السِّماطَين، وبالطِّوال التي تُنشَد يوم الحفْل، لم يجِدْ بُدّاً من صَنيع زُهير والحطيئة وأشباههما"([2])

وهو يرى أن مديحه للكرام، وكلماته العذاب فيهم تشبه في أثرها أثر الخمر التي تلذ للنشوان الذي يشربها في حالة من السعادة والنشوة لا توصف، ويرى أيضا أن هذا المدح هو ديدنه فسيظل دائما يمدح الكرام، فمدائحه أجمل الغناء. كما نراه يستخدم المبالغة المقبولة والتي يسخرها لخدمة ما أراد من النوال، نراه يمدح ويقول:

كريـــمٌ علـيمٌ فهـو يَلْقَـى مديحـه ** ومادِحَـهُ فـي النـاس بالنَّقْـدِ والنقـدِ

ترى الخيرَ طبعاً في علاه عزيمـةً ** فهـل كـان مَهْـدِيًّا لـذاك مـن المَهْـدِ([3])

فيصفه بالكرم والعلم ويجانس بين "النقد" وهو المال والنقد وهو تقييم الشعر والكرم يقابله المال والعلم يقابله تقويم الشعر وكذلك "مدحه ومادحه" المديح الشعر والمادح محط الكرم والعطاء، ثم يؤكد ما راح إليه باستفهام تقريري يؤكد فيه أن الممدوح مجبول على العطاء والكرم وتلك هي فطرته التي فطر عليها منذ كان في مهده ولا يخفى الجناس الرائع في قوله "مهديا – مهد"

* وعلى كل حال فقد كانت مطالعه متفقة ومتجانسة مع الغرض الذي يخلص إليه واحداً بعد الآخر وتم له ذلك في سلاسة وحسن تخلص رائعين، وكأن المدح والغزل في أول القصيدة قد مزجا مزجا فأصبحا كيانا واحدا يقول ابن رشيق: "من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح

(1) البيان والتبيين 13/2.

(2) السابق نفسه.

(3) الخريدة 173/2.

أو ذم، متصلاً به، غير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفي معالم جماله "([1])

وهو مما نجح فيه علي بن عرام في قصائده.

(1) العمدة 111/1.

الملامح الأسلوبية

عرَّف عبد القاهر الأسلوب بأنه "الضرب من النظم والطريقة فيه"([1])

وعرفه ابن خلدون بأنه "المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القوالب الذي تفرغ فيه" ([2]) فهو الطريقة التي يصوغ فيها الكاتب أو الشاعر أفكاره، ويبين بها عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات.

ومما لا شك فيه أن الأساليب تختلف باختلاف الأغراض، بل إن الفن الواحد من الكلام له أساليب تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة"([3])

والأسلوب ملك لصاحبه، ولذا عدوا من أخذ المعنى الذي حواه الأسلوب سارقاً، ومن أخذ لفظه سارق كذلك، واعتزوا بملكية الأسلوب اعتزازاً قوياً، حتى كان باب السرقات الأدبية من أكبر أبواب النقد عند العرب"([4])

وللأسلوب لبنات هي الألفاظ، ولكل لبنة وظيفة ودور، وقد تعرض النقاد لها بالتقنين حتى تكون مؤدية لعملها على الوجه الأكمل والصورة الأليق، فوضعوا مقاييس لنقدها منها:الدقة والإيحاء والسهولة والألفة والطرافة، والشاعرية والاستعمال وغيرها من مقاييس النحو والانسياب والوضوح والقوة والمحسنات البديعية.

وقبل حديثنا عن السمات الأسلوبية في شعر"علي بن عرّام" لا بد أن ننوه على وجود مدرستين أسلوبيتين آنذاك.

---

(1) دلائل الإعجاز ص 338.

(2) مقدمة ابن خلدون.

(3) أسس النقد الأدبي 451.

(4) السابق 452.

أولاهما: مدرسة الرقة والأخرى:مدرسة الصنعة

وسبق وأن ذكرنا أن شاعرنا كان يجمع ما بين التقليد والتجديد، فهو وإن كان له سمت المقلدين في موضوعاته وشكل القصيد، إلا أننا لا نعدم عنده الأثر البالغ للمدرسة الجديدة التي تزعمها القاضي الفاضل وهي مدرسة الصنعة لذا يمكن أن نقول إن شاعرنا مصنوع أشبه بالمطبوع؛ وذلك هو الذي يقف فيه الشاعر عند إنتاجه، يغير فيه ويبدل كي يظفر بمحسن بديعي، ولكن الشاعر لا يلتمس البعيد في ذلك، ولا يعنى نفسه في إخضاع المعنى لهذا المحسن البديعي، بل يكون قريب المآخذ، تكاد تكون الكلمة في موضعها ولا يبدو أن فيها محسنا بديعيا إلا بالتفتيش والتنقيب وترديد النظر والتريث في النص الشعري، ويمثلون لذلك بشعر البحتري "([1]).

ويتميز شعر "ابن عرّام" بالرقة، والرقة مدرسة أسلوبية أو طريقة تعبيرية عرفت كاتجاه في الشعر المصري منذ العصر العباسي ثم ازدهرت في العصرين الفاطمي والأيوبي بحيث كاد معظم الشعراء يتبعونها في فنهم، فالألفاظ لينة، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ولا يظهر في فنهم أي لون من ألوان التكلف، وأكثر شعراء هذا الاتجاه من الغزليين ولذا عرف مذهبهم في العصر الأيوبي بالطريقة الغرامية، وقد اهتم شعراء هذه المدرسة اهتماما خاصا بالمقدمات الغزلية في قصائدهم وأكثروا من الغزل وأطالوا فيه

وقد أنشد شعراء هذه المدرسة في كل الأغراض الشعرية واهتموا بالتعبير عن العواطف بطريقة أدنى إلى ذوق العامة، وتأتي -غالبا- متوافقة مع الذوق الأدبي العام السائد في مصر آنذاك كما يميل أصحاب هذه المدرسة إلى المقطعات الصغيرة بدلا من القصائد الطويلة، وسبب ذلك أنهم كانوا ينشدون لأنفسهم وأصدقائهم، وإذا ذهب أحدهم إلى المدح رجع إلى التقليد فأطال وأسهب وربما دخل دون قصد إلى مدرسة الصنعة، ويمكن القول بأن مدرسة الرقة أو الطبع ليست وليدة المجتمع المصري فالشعر العربي منذ العصر الجاهلي كانت به كلتا

(1) أسس النقد الأدبي 488.

المدرستين الطبع والصنعة، وعبيد الشعر مدرسة تدخل تحت الصنعة، وغالبا ما يعجب النقاد بالمطبوع ويقدمونه على صاحب الصنعة والبديع.

ومن الملامح الأسلوبية عند "ابن عرّام"

أولاً: التنوع بين الخبر والإنشاء:

ينوع الشاعر أسلوبه وفق ما يقتضيه المقام ويجليه الموقف، فنراه حين ينشد قصائده يكثر من الأسلوب الخبري في مديحه ووصفه ورثائه وغزله، ولكنه يجمل هذه الأخبار بأسلوب إنشائي من ذلك قوله في ممدوح له مستخدما أسلوب النداء:

أَيَا مَلِكاً يُعْطِي على كلِّ حالةٍ ** ويُعْطي أَخُوهُ الغيثُ في الغَيْمِ لا الصَّحْوِ([1])

فنادى ممدوحه بالهمزة التي هي لنداء القريب ليوحي بقربه منه ومكانته عنده ويشرك مع الهمزة الياء ليشير إلى مكانة ممدوحه العالية والتي ارتقت به إلى المجد فهو وإن كان قريباً بجسده فينادي بالهمزة فهو كذلك بعيد لعلو منزلته وارتقائه في المجد والملك، كذلك يعطي على كل حال سواء في الرخاء أو الشدة ثم يقارن بين ممدوحه والغيث الذي جعله أخا لممدوحه فكلاهما منبع العطاء والكرم فالغيث يعم الناس بخيره وممدوحه يعم الناس بكرمه، ولكنه يرى ممدوحه أكثر كرماً من الغيث، فالغيث لا يعطي إلا في وقت الغيم وإذا غاب الغيم غاب عطاء الغيث، أما ممدوحه فهو يعطي في كل الأحوال.

وفي موطن آخر ينادي الشاعر ربَّه في دعاء خاشع أن يحرس بلدة حرستا يقول:

ويا ذا الجلالِ احرس حَرَسْتَا فَحُسْنُها ** شفاءٌ لمهمومٍ ودآءٌ لمطبوب([2])

ونراه يدعو الله ولكنه يدعو على من تسبب في ازاحته عن موطنه وتركه لبلده التي بها الظل والماء الزلال يقول:

(1) الخريدة 885/2.

(2) الخريدة 170/2.

فلا بارك الرحمنُ فيمن أَزاحني ** عن الظلِّ والماءِ الزُّلالِ الذي يجري ([1])

وله من قصيدة تنشد على المقابر قوله:

كم أَبٍ والِهٍ بثُكْلِ بَنيهِ ** كم يَتيمٍ فينا من الأوْلادِ([2])

فهو يتساءل كم عدد الآباء الذين فقدوا أبناءهم وعدد الأولاد الذين فقدوا آباءهم وهو لا يتساءل لمعرفة العدد وإنما ليقرر أن هذه هي الحياة والكل إلى مصير محتوم يذهبون سواء أكانوا كبارا أم صغارا لذا يتساءل مرة أخرى إذا كان هذا هو حالنا ومصيرنا والكل إلى زوال فلماذا نتحاسد أو نتباغض ولماذا نتشاجر ونتخاصم يقول:

فعَلامَ المُشاجَرَاتُ وفيما ** ولماذا تحاسُدُ الحُسَّادِ([3])

إنما يرى أنه لا طائل من المشاجرات ولا منفعة ترجى من التحاسد طالما أننا جميعا نسير في نفس الطريق ونبتغي نفس النهاية، فلا سكن سوى القبور، ولا وساد سوى التراب يقول فيها:

فالقبورُ البيوتُ مَضْجَعُنا فيـ ** ـها وما إنْ سِوَى الثَّرى من وِساد([4])

كما نراه في مرثية ابن عمه أبي محمد هبة الله بن علي بن عرّام، يتساءل في لوعة وألم، من الذي يذهب عنا سوء الخطوب ويزيل النوائب، ومن يحوك القريض مثلك بخبرة ودربة؟ يقول:

مَنْ لسودِ الخطوب غَيْرُكَ يُجْلِيهَا ** وقد غابَ منك بَدْرٌ منير

من يحوكُ القريضَ مِثْلكَ يُسْدِيه ** على خِبْرةٍ به وَيُنِيرُ ([1])

---

(1) الخريدة 176/2.

(2) الخريدة 174/2.

(3) الخريدة 174/2.

(4) الخريدة 174/2.

ثم يعود للأسلوب الخبري مؤكدا أنه لا يرى العيش خيرا من بعد فقده، ويتمنى لو زاره الموت قريبا يقول:

ليس في العيشِ بَعْدَ فقْدِك خَيْرٌ ** حَبَّذَا وافدُ الردى لو يَزُور([2])

ثم بعد بيتين يعود للإنشاد حين يعتصره الألم ويتملكه الحزن والألم يعتصر نفسه – يقول:

كيف لي بالسلوِّ عنه وَطَيُّ الـ ** قلبِ من فَقْدِهِ جَوًى مَنْشُور([3])

هكذا استخدم الشاعر أسلوب الإنشاء ليعبر به عن انفعالات نفسية ما كانت لتصلح إلا به، وقد نوع أسلوبه ما بين خبر وإنشاء ليلائم بين المعنى والأسلوب بصياغة رائعة وأسلوب ممتع.

ثانياً: التكرار

توجد للتكرار فوائده الجمة في الأسلوب،وعلى وجه الخصوص إذا ما أحسن الشاعر استخدامه وعرف متى يكرر؟ وقد يكون التكرار معيبا كما في قول الشاعر:

فما للنّوَى، جَدَّ النّوى، قَطعَ النّوى ** كذاك النّوى قطّاعةٌ لوِصالِ

ويروى أن الأصمعي حين سمع هذا البيت قال: لو سلّط الله تعالى على هذا البيت شاةً فأكلتْ نواهُ، وأراحتِ الناسَ منه. ([4])

وشاعرنا يشيع عنده التكرار فيحسن أحيانا ويخفق حينا، فمن ذلك قوله:

فإن ينقرضْ عيْنُ الزمانِ فإنه ** لإنسانِ تلك العينِ عينُ المُشاهِدِ([5])

---

(1) الخريدة 176/2.

(2) الخريدة 176/2.

(3) الخريدة 176/2.

(4) السابق 175/2.

(5) يتيمة الدهر 140/1.

فالبيت في "ابن عين الزمان" والبيت مليء بالعيون التي أغرقته فغاص معناه بعيدا عن الفهم، وأقول لو سلط الله على هذه العيون رملا فغطى هذه العيون أورمداً فأعماها كلها ومن التكرار المعيب قوله:

ذات جيـــدٍ كـــالريمِ حَـــلاَّهُ عِقْـــدٌ ** حَـــلَّ فيـــه بحـــلٍّ عَقْـــدِ عَزَائـــي (1)

فتلك المرأة تملك جيدا كالريم يطوقه عقد جميل زاد به الجيد جمالا فوق جماله، أخذ لب الشاعر. ولكن التكرار في (حلاه – حل – حل) فكأن البيت قد انحل وثاقه فأصبح بلا رابط من كثرة تلك الحلول.

ومن التكرار الحسن والذي يضيف إلى المعنى ويجمله قوله في مدح الأمير مبارك بن منقذ:

أقـــول لنفســـي ان تـــدانى مـــزاره ** خـــذي ذمـــة منـــه لنائبـــه خـــذي (2)

فالأمير مبارك قلما يجود الزمان بلقائه، وقد سنحت الفرصة للقائه وأصبح في حضرته ولا بد من استغلال تلك الفرصة النادرة، واغتنام هذا اللقاء لتأمين المستقبل القادم وأخذ وعد من الأمير بالحماية والرعاية، لذا يحث نفسه على النشاط والاجتهاد للخروج بأفضل المكاسب من هذا اللقاء فيقول لنفسه "خذي – خذي" ولا شك في أن التكرار هنا رائع وذو فائدة كبيرة.

ولما ضاق به المقام بأسوان عقد العزم على الرحيل سريعا إلى بلاد الشام فقال:

إنّ في الأرض غيرَ أُسْوانَ فـاهْرُبْ ** مـــن أَذاهُـــمْ إلـــى بـــلادِ الشـــام

فالرحيـلَ الرحيـلَ عـنهم ســـريعاً ** فهـــمُ مـــن لئـــامِ هـــذا الأَنـــام

لقد اشتد به الأذى في أسوان ونال من حكامها عذابات جمة ولم يعد يأمن على نفسه معهم، فهم من لئام الأنام لا يؤمن غدرهم، ولا يرجى خيرهم، وإذا ما ظل بأسوان فلا يدري ماذا سيحدث له لذلك يحث نفسه على الرحيل السريع دون إبطاء أو تأجيل، فالخطر محدق والأمن منعدم، لذلك استخدم أسلوب التكرار

(1) السابق 175/2.

(2) السابق 175/2.

(الرحيل الرحيل) وذيلها بالحال "سريعا" كي يحظى بفرصة للنجاة وذلك بالمبادرة الفورية بالرحيل، فالتكرار- كما ترى- يحسن في مثل هذه المواضع.

ثالثا: تنوع الأسلوب ما بين الجزل القديم والسهل المعاصر:

يتنوع أسلوب "ابن عرّام" بحسب المتلقي أيضاً، فنراه حين يخاطب الملوك والأمراء والعظماء مادحاً، يرتدي ثوب الجدة فيمسك بتلابيب المذهب القديم ويقلد سابقيه في هذا المضمار من أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام كما تمسكوا هم أيضاً بتلابيب سابقيهم، حينئذ نجد الأسلوب الجزل الرصين بألفاظه المنتقاة بدقة وعناية والصور القوية المتشابكة والأفكار المرتبة كترتيب القصائد التليدة، ولكنه حين يصوغ شعراً للعامة ينزل من هذا البرج السامق إلى تلك الشوارع والميادين التي يتحدث فيها الناس بلغة بسيطة بلا تكلف أو تجمل، فيكتب شعره كأنه منهم ليفهم بهذا الشعر المتلقي البسيط فمن الأول قوله مادحاً:

وإذا انتَضَى سيفاً هناك فنصلُهُ ** في غِمْدِ ثَجَّاجٍ من الدم مُزْبِدِ

وكأنما هو مُغْمَدٌ في هامِهِمْ ** فلذاك يُلْفَى الدهرَ غيرَ مُجَرَّد ([1])

ومنه أيضاً يصف وصول بني أيوب مصر وقتالهم الصليبين:

ولما دُعُوا من مِصرَ لَبُّوا دعاءَنا ** على كلِّ نَهْدٍ لَيِّنِ العُنْقِ يَعْبُوب([2])

والقصيدة في مجملها تدور ألفاظها في هذا الفلك.

فالأسلوب قوي والألفاظ جزلة رصينة منتقاة بعناية، ليس فيها لفظة ركيكة أو مبتذلة سوقية، والقافية قوية ذات جرس موسيقي رائع، والبحر ملائم للغرض والإكثار من جمع التكسير يعطي للشعر فخامة وجلالة من نحو قوله: "مغارم – مناهب – صفائح - صحائف – كتائب – قواضب – فضائل – مواهب"

والجناس بين "صفائح وصحائف" وبين "كتب وكتائب"، وبين "صرير وصليل" وبين "فضل وفضائل" و"فضل وفيض" والتفصيل بعد الإجمال في قوله

(1) السابق 173/2.

(2) انظر الأبيات ص 15 –16 ذات البحث.

"عطائين من علم فيض مواهب" والتقسيم في قوله: صرير يراع وصليل قواضب، كل هذا الاهتمام باللفظ لم يخل بأداء المعنى على الصورة التي أرادها الشاعر، فتحت هذه الألوان البلاغية تجد معنى جيدا وفكرة مستحبة، من ذلك قوله:

وَرِعٌ وَأَرْوَعُ باســـــــــــــلٌ ** عِنْـــدَ المَحَـــــارِبِ والمُحَـــــاربْ

يَهَـــوى المعـــارِفَ لا المعـــا ** زِفَ والمشـــــاعِرَ لا المشـــــارِبْ

سُـــمْرُ العـــوالي فـــي العُـــلاَ تُلْهيــه عــن بــيضِ الكواعــب ([1])

فالجناس بين "ورع وأروع" وبين "المَحَارب والمُحَارب" فهو بهذا يؤكد على أن ممدوحه يجمع بين قوة الإيمان والعبادة وقوة البأس في ميادين القتال وهذا المعنى مكرر عنده وغالباً ما يؤكد بعده على اهتمامه بالعلوم والمعرفة التي ألهته عن الملذات والشهوات فورع بمعنى تقي وأروع الذي يُخَوِّف أعداءه والمَحَارب مجمع محراب وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية فالمقصود المساجد، والمُحَارب الجندي في ميدان المعركة، ثم الجناس بين "المعارف والمعازف" و "المشاعر والمشارب" فهو يهوي المعارف والعلوم ولا يهوى المعازف وآلات الطرب ويهوى المشاعر لا المشارب والخمور.

ثم الجناس بين "العوالي والعلا" والمقابلة بين "سمر وبيض" وصيغ جمع التكسير "محارب – معازف – مشاعر – مشارب – كواكب" كل هذه الموسيقى الداخلية بتلك الألفاظ ذات الجرس العالي بالإضافة إلى الوجوه البلاغية من جناس وطباق ومقابلة وغيرها توهمك أن الشاعر اهتم باللفظ كثيراً،- وهذا حق ولكنه مع ذلك الاهتمام لم يهمل المعنى، وتجد تحت تلك الهالة من البلاغيات والبديعيات معنى رائقا فالممدوح صرف كل اهتمامه إلى شيئين اثنين العبادة والجهاد فإن فرغ من الجهاد فهو في عبادة وعلم ومعرفة وليس له علاقة تذكر بالملاهي من نساء أو غناء أو مشارب.

(1) الخريدة 168/2.

وقد تغلب عليه الصنعة حيناً فلا تجد تحت اللفظ إلا معنى ضعيفاً لا يتناسب مع هذه الزخارف اللفظية الكثيرة،و من ذلك:

كم ليلةٍ نِلْتُ من نَيْل المُنَى وَشَفَت ** بـذلك الوَصْـلِ مـا بالصـدر مـن غُلَـل

عُلِّقْتُهـا غِـرَّةً غَـرَّاءَ غُـرَّتُـهـا ** كالبـدرِ حُـفَّ بليـلٍ فـاحمِ رَجِـلِ([1])

ومثله قوله واصفاً بعض قرى الشام:

لـئن قَصَّـرتْ بالقصـرِ عمـا أَلِفْتُـهُ ** وقـد كنـتُ عنهـا قَبْلَهـا غيـر محجـوب

فقـد جَسَـرَتْ بالجسـرِ وهـي جَبَانـةٌ ** وزارت بليـلٍ أَســودِ اللــونِ غِرْبيـبِ

نَعِمْـتُ بهـا فـي جَنّـَةٍ عُجِّلَـتْ لنـا ** بِجِلَّـقَ إِذْ لَهْـوِي بهـا غيـرُ مَقْضُـوبِ

مغـانٍ غـوانٍ مـن عيـونٍ بسـفحها ** وقيعانِهـا عـن سـاجِمِ الغيـثِ شُـؤْبوب ([2])

فالألفاظ كما ترى محملة بالجناس من نحو: "قصرت – بالقصر" و"جسرت بالجسر" و"مغان –غوان" وكأن الشاعر ما أراد إلا ذكر هذه الأسماء للقرى"القصر – الجسر جَلَّق" وراح يبحث عن كلمات تجانسها ثم يأتي بمعنى مناسب للاسم بلا رابط بين الأبيات ولا معنى جامع بينها سوى أن هذه القرى كلها في الشام.

فالأسلوب وإن كان جميلاً فلا طائل من ورائه ولا معنى مرجو بعده.

(1) الخريدة 2/ 180ورَجِلِ: صفة للشعر وهو ما بين البسوطة والجعود.

(2) السابق 170/2.

رابعاً: التمتع بروح الفكاهة

إن الشعب المصري كان ولا يزال يتمتع بروح الفكاهة، فلا تجد في العالم شعباً يجعل من مصائبه مادة للضحك والفكاهة مثله، وهذه الروح من الدعابة والفكاهة نجدها عند كثير من الشعراء المصريين في مختلف العصور وعلي بن عرّام كان يتمتع بها أيضاً، من ذلك الأسلوب الفكاهي، ما نجده عنده في رسم صورة لمن يهجوه، يشبهه فيها بصخور الأرض الثقيلة اليابسة الباردة... فيقول:

عناصـــرُ الإنســـان مـــن أربـــعٍ ** وخالـــــدٌ عُنْصُـــــرُهُ واحـــــدُ

فمـــن كثيـــفِ الأَرْضِ تكوينُـــهُ ** فَهْـــوَ ثَقِيـــلٌ يـــابسٌ بـــاردُ (1)

ومن تلك الروح الفكاهية ما نراه عنده وهو يطلب من ممدوحه فروا يتقي به البرد، ويقول له أنا لا أطلب منك مالاً ولو طلبت لأعطيت، ولكن هذا المدح خاص بطلب الفرو... يقول:

وما أَبْتَغِي مالاً، ولو شئتُ لم يَفُتْ ** لديك، وهذا ليسَ قَصْدِي ولا نَحْوِي

ولكنْ لِفَضْلِ البَرْدِ في الجسم سَوْرَةٌ ** وليس بِوَاقٍ من أَذاه سوى الفَرْوِ (2)

(2)

خامساً: الاهتمام باللفظ دون إهمال المعنى

لا يخفى على من يقرأ شعر ابن عرّام أثر الصنعة فيه وفي نفس الوقت فإنه يجد تحت هذا الشكل معانٍي رائعة، فلم يأخذ الاهتمام باللفظ الشاعر بعيداً عن المعاني وإهمالها، بل نراه يوازن بينهما في عبقرية نادرة، ونجد ذلك حينما يتوجه بشعره مادحاً أحد الملوك والأمراء فلا ريب في أنه وغيره من الشعراء يمدحون الملوك والأمراء، والمنافسة بين الشعراء حاصلة لا محالة، والمديح معروض

(1) السابق 175/2.

(2) السابق 180/2.

على الناس في حفل أو غيره، لذا فهو يجود هذا الشعر على غرار مدرسة "عبيد الشعر" وفي ذات الوقت للمعنى دوره الذي لا يهمله فمن ذلك قوله:

هـمُ حَمَّلـوا ثِقْـلَ المغـارمِ مَـالَهُمْ ** وخَلَّـوْهُ وَقْفـاً بيـنهمْ لِلْمَنـاهِبِ

صـفائحُ فـي أَيـديهمُ أَو صـحائفٌ ** فهـمْ بـين كُتْـبٍ تُقْتَنَـى أَوْ كَتَائـبِ

هـواهمْ علـى أنَّ المـآربَ جَمَّـةٌ ** صـريرُ يـراعٍ أَوْ صَـليلُ قَوَاضِـب

وجـادوا بفضـلٍ بـاهرٍ وفضـائل ** عَطاءَيْنِ من عِلْمٍ وَفَيْضِ مَوَاهب (1)

(1)

ومن النوع الثاني الذي يأتي عفو الخاطر بلا تجمل ولا تجويد قوله:

الـرَّدَى للأَنـامِ بالمرصـادِ ** كـلُّ حـيٍ منـه علـى مِيـعادِ

كيـفَ يُرْجَـى ثبـاتُ أَمْـرِ زمـانٍ ** هـو جـارٍ طبعـاً علـى الأَضـداد

فـإذا سـرَّ سـاءَ حتمـاً وَيَقْضِـي ** بوُجـودٍ إلـى بِلـىً ونَفَـادِ(2)

ولا يخفى ما في الأسلوب الأول من الجدة والجزالة وما في الأسلوب الثاني من السهولة والبساطة

هكذا رأينا ملامح أسلوب ابن عرّام تتنوع ما بين التقليد والتجديد، وإن كانت مدرسة الصنعة لها وجودها الظاهر عنده إلا أننا لا نفقد عنده روح الشاعر التقليدي يلبس حلة القدماء ويسير على دربهم وينتهج منهجهم.

الألفاظ

لا ريب في أن للألفاظ دورها الفعال في الشعر. فهى رسل المعاني وسبل الأفكار ومتنفس العواطف، وخيوط نسج الخيال، ومن أهملها فقدْ فَقَدَ جمال الشعر وروعة القريض وليس له في الإبداع نصيب، فاللفظ والمعنى معاً يرسمان تلك اللوحات الشعرية الرائعة، ولا ينبغي للشاعر أن يهتم لأحدهما على حساب الآخر. يقول عبد القاهر:

(1) السابق 2/168–169.

(2) الخريدة 2/174.

الألفاظ خَدَمُ المعاني والمُصرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستهَا، المستحقَّةَ طاعتها، فمن نَصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جِهَته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فَتْح أبواب العيب، والتَّعرُّضُ للشَّيْن،"([1]) وقد شاعت مدرسة الصنعة في مصر آنذاك واتبعها نفر كثير من الشعراء ومن لم يتبعها فقد تأثر بها بغير قصد، وعلى بن عرّام اهتم باللفظ دون إهمال للمعاني فتراه يدقق في اختيار ألفاظه ويجانس بينها في غرام شديد.

والشاعر حينما يستخدم الألفاظ لا يستخدمها بمدلولها اللغوي فحسب، وإنما بعد مراعاته لهذا المدلول، يُحمل الكلمة شحنة انفعاليه تكون قادرة على نقل الإحساس منه إلى المتلقي، والكلمة وحدها لا تؤدي معنى بل يجب أن توضع في جملة، تأخذ مما يجاورها وتعطيه فكل كلمة محملة بالوجدان بجانب المدلول الوضعي، اكتسبته من الاستعمال في مواقف وجدانية معينة، ونحن إذا تابعنا شاعرا ما في مفرداته لا نطلب منه عطاءً منفردا، وإنما ما تبوح به كلماته داخل الجملة، وما يرتبط بها من أحاسيس وجدانية.

فالحرف لا قيمة له إلا داخل الكلمة، والكلمة لا قيمة لها إلا داخل الجملة، فاللغة ليست ألفاظا ولا مفردات، ولكنها علاقات حميمة يتكون منها الأسلوب.

وإذا ولينا وجهنا شطر شاعرنا "على بن عرّام" نرى أنه كان يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع ويوائم بين موسيقا الطول والقصر وبين المعاني والأغراض، وكان يعيد النظر في شعره، وربما بدل لفظة بأخرى أو قدم أو أخر بغية توفير الجمال لشعره

فحينما يمدح ملكاً أو أميراً يختار الألفاظ الفخمة ذات الدلالات القوية والجرس العالي والموسيقى المتساوية من ذلك قوله مادحاً عز الدين موسك الناصري:

يُبيحون في سُبْلِ المكارمِ ما غَدَتْ ** تُبيحُهُمُ في الرَّوْعِ بيضُ القَضائبِ

فآراؤهُمْ تكفي النصالَ نصالَهُمْ ** كما كُتْبُهُمْ تُغْنِي غَنَاءَ الكتائب

(1) اسرار البلاغة ص8 بتصرف يسير.

ومنها:

أقـــولُ لِمَمْنُـــوٍ برَيْـبِ زمـــانهِ ** ومَـن ظـلَّ مَعْضوضـاً بنـابِ النَّوائـب

ومـن أَخَذَتْ منـه التَّنـائفُ والسُّرَى ** فلـيس تـراهُ غيـرَ أَغْبَـــرَ شـــاحبِ

عليـكَ بعزِّ الديــن فاســتَذِرْ ظِــلَّهُ ** ولُـذْ بعزيـزِ الجـارِ رَحْـبِ الجـــوانب

إذا ظَمِئَـتْ سُـــــمْرُ الرمــاحِ بكفِّـه ** سَـــقَاها فروّاهـا دمـاءَ التـرائـبِ (1)

نلحظ أولا هذا التناغم بين الألفاظ المتناسبة موسيقيا من مثل "المراتب، الكواكب، المكارم/ الكتائب، النوائب، التنائف، الجوانب، الترائب" وكذا في بقية القصيدة.

وهذه الصيغة "فعائل" لها فخامة في النطق وروعة في الأداء تتناسب مع غرض المديح، وكذا المجانسة بين الفعل "يبيحون وتبيحهم" والاسمين" النصال ونصالهم" و"كتبهم والكتائب" وما بينها من تناغم وتجانس تضفي على النص روعة ومهابة وتجعله أكثر تماسكاً وتوحداً.

وفي قوله: **عليكَ بعزِّ الدين...البيت** فـ"عليك" لها من العمل ما للفعل (ألْذْ) والجناس بين "عز وعزيز" والتناسب بين "عز الدين وعزيز الجار" كل ذلك الحشد من التوافق والتناسب والتجانس بين الألفاظ تثري البيت بجمال فائق واستحسان رائق.

ثم هذا التناسب ففي اختيار الألفاظ في البيت الأخير في قوله "ظمئت، سقاها رواها" فالبيت من معين واحد يصب في بوتقة واحدة.

واختيار الألفاظ -كما ترى- به دقة متناهية مناسبة للمدح بما فيه من فخامة وجلال، كما أنها تنماز بالسهولة واليسر فتجري على الألسنة في انسيابية وطلاقة.

ونراه حين يرسل بطاقة تهنئة بمولود لأحد العامة يميل إلى اليسر والسهولة في اختيار الألفاظ ولا تجد فيها هذه الفخامة والجزالة التي رأيناها في المدح، ولكننا لا نعدم التناسب بين الألفاظ والتلاؤم بين اللفظ والمعنى... يقول:

(1) الخريدة 2/167–168.

قـــد أَطلـــعَ اللّهُ لنـــا كـوكبـــاً ** أَضـــاءَ شـــرقَ الأرضِ والمغربـــا
قـــادمُ سَـــــعْدٍ يَقْتَضِـــي سَـــــعْدُهُ ** ســـــعادةَ الـــوالـــد إِذْ أَنْجَـــبَا
والأَصْـــلُ إِنْ طـــابَ ثَـــرَى غَرْسِـــهِ ** أَنْـــبَـَتَ فَـــرْعاً مُثْـــمِراً طَيِّـــبا
مَوْهِبـــــةٌ خـــصَّ بهـــا اللّهُ مَـــنْ ** أَصْـــــبَحَ للنعمـــةِ مُسْـــــتوْجِبَا
فَـــدُمْ قريـــرَ العـــــينِ حَتَّـــى تَـــرَى ** خَلْفَـــكَ مـــن إِخوتـــه مَوْكِبَـــا([1])

فالألفاظ –كما ترى- تتناسب مع الغرض الذي سيقت من أجله،، ففيها من اليسر والسهولة ما فيها فضلاً عن هذا التناسب في اختيار الألفاظ، ففي البيت الأول شبه المولود بكوكب دري مضئ وناسبه كلمات كوكب والشرق والغرب والضوء والأرض وكلها تدور في فلك واحد، وفي البيت الثاني يكرر كلمة السعد والسعادة لينشر هذا الجو من الفرح والسرور وفي البيت الثالث يؤكد فكرته بالدليل فإذا طاب ثري الغرس طاب الزرع والثمر، فالألفاظ مناسبة للمعنى بينها مؤاخاة وتآزر يشد بعضها بعضاً في تلاحم وتوافق يشهد للشاعر بالقدرة الفنية في اختيار الكلمات المناسبة للمعنى المراد.

وشعر ابن عرّام في مجمله لا يحتوي على ألفاظ نابية أو خارجة عن الذوق العام، كما أنها في معظمها تتميز بالوضوح والدلالة على المعنى في يسر، وهي كلمات شاعرية قوية معبرة عن المعنى المراد كأحسن ما يكون، تنساب في سهولة ويسر على ألسنة قرائها، متوافقة مع مقاييس النحو الصحيح دون إخلال بقواعد اللغة، وتتلاحم في توافق بديع، وتآخ وتلاؤم بين اللفظ والمعنى ببراعة.

(1) الخريدة 167/2.

المعاني

لا ريب في أن ابن عرّام قد اهتم بالألفاظ أيما اهتمام - نظرا للاتجاه العام آنذاك – إلا أن ذلك لم يكن يوماً ما على حساب المعنى الذي كتب من أجله القصيد فنراه يعطي المعنى حقه دون تقصير، كما أن أغلب شعره سهل المنال قريب المعنى لا غرابة فيه ولا تعقيد ولا تعمية، فهو يخلص إلى المعنى من أقرب الطرق وأيسر السبل، وكأنه يخاطب العامة بشعره فيتخير الألفاظ المناسبة للمعاني وينقل إليهم المعنى المباشر دون تورية أو موارة، ومع تلك السهولة في المعاني ووضوحها تجد بها الجديد المبتكر، والقديم بثوب قشيب، فضلاً عن الغوص في المعاني واستقصائها والمبالغة في وصفها، فنراه حين يهنئ أحد أصدقائه أو ممدوحيه بمولود يلتمس من الألفاظ ما يؤدي المعنى الذي أراد، فلا صعوبة في المعنى ولا تعقيد، وهو في ذلك يراعي مقتضى حال المخاطب بل وحال المعنى الذي ساق من أجله الشعر ففي النموذج السابق الذي أوله:

قـــد أَطلـــعَ اللّهُ لنـــــا كوكبـــاً ** أَضـاءَ شـرقَ الأرضِ والمغربـا([1])

كما لا يخفي وفاؤه بالمعاني المذكورة فالكوكب أضاء شرق الأرض ومغربها والأصل إن طاب غرسه طاب فرعه وثمره، وكذلك النعمة تعطى لمستحقيها ومستوجبيها، ثم لا ينسى أن يدعو له بتمام سعادته بأن يرزقه الله العمر حتى يرى من إخوانه كوكباً حتى تكتمل السعادة بكثرة النعمة والولد.

ومن هذه السهولة في إيصال المعنى المراد قوله متغزلاً:

الوَجْـــدُ للـــدنفِ المُعَنَّـــى فاضـــحُ ** ودليلُـــهُ بـــــادٍ عليـــه وَوَاضِـــحُ
كيـفَ الســـــبيلُ لـــه إلـى كِتْمانِـه ** والـدمعُ والسّـقَمُ المُبَـرِّحُ بـارحُ
إن يُمْـسِ قلبـي وهـو صـبٌّ نـازحٌ ** فـلأنّ مـن يهـــواهُ عنـهُ نـازحُ

(1) العمدة 167/1.

فجـوارحي وجـداً عليـه جَرِيحـةٌ ** وجـوانحي شَـوْقاً إليـهِ جَـوَانح([1])

"الصب تفضحه العيون" إن من حمل في قلبه الوجد والحب فلا بد أن يظهر عليه أثره لأنه لا يستطيع كتمانه بحال فتفضحه عيونه أو دموعه أو ألم الحب وسقمه خاصة إذا نزح المحبوب أو سافر بعيداً فليس هناك بد من إظهار الألم والشوق، لذا فالجوارح جريحة والجوانح جانحة، ولا يخفى ما فيها من جناس رائع أضفى على المعنى روعة وجمالاً وزاده وضوحاً وبياناً.

ومن سهولة المعاني ويسرها ووضوحها قوله :

الـرَّدَى للأَنـامِ بالمرصـادِ ** كـلُّ حـيٍ منـه علـى مِيعـادِ

كيـفَ يُرْجَـى ثبـاتُ أَمْـرِ زمـانٍ ** هـو جـارٍ طبعـاً علـى الأَضـداد

فـإذا سـرَّ سـاءَ حتمـاً وَيَقْضِـي ** بِوُجـودٍ إلـى بِلـىً ونَفَـادِ([2])

ولا يخفى أن قوله "الرَّدَى للأَنامِ بالمرصادِ" ليس بعيدا عن قوله تعالى (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ]([3])

ثم يتبع ذلك باستفهام تقريري يؤكد فيه تغير الأحول وتبدلها وعدم ثباتها لأن طبيعة الزمن التقلب قال تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ]([4]) وقال: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ] ([5])،فإذا سرك زمن ساءك غيره وهو من قول الشاعر الشاعر الأندلسي أبي البقاء الرُّنْدِيّ:

هـي الأمـور كمـا شـاهدتها دول ** مـن سـره زمـن سـاءته أزمـان

(1) الخريدة 173/2

(2) الخريدة 174/2

(3) سبأ 30.

(4) الرحمن 29.

(5) سورة آل عمران 140.

ونراه حين يلبس ثوب القدماء ينافس كبار الشعراء فيبتعد قليلاً عن السهولة المعهودة في طرح المعاني، ويلجأ إلى الغوص بالمعنى بعيداً عن السطحية المجردة، لذا أنت في حاجة إلى الغوص وراء المعنى حتى تلتقط درّه ولآلئه، فليس المعنى سهل المنال، وإنما يأتيك بعد فكر وطلب وبهذا يكون موقعه في النفس أجل وألطف، يقول صاحب أسرار البلاغة:

"إن المعنى إذا أتاك ممثَّلاً، فهو فى الأكثر ينجلي لك بعد أن يُحْوِجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطرِ له والهِمَّة في طلبه، وماكان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر،واحتجاجه أشد، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضَنَّ وأشغف"([1])، من هذا هذا اللون قوله في مطلع قصيدة:

أَطَلْتَ من اللَّوْمِ المُرَدَّدِ والعَذْلِ ** علَيَّ وإنِّي في الغرامِ لَفِي شُغْلِ

فما الحبُّ إلا النارُ والعَذْلُ عنده ** هواءٌ به يزدادُ في قُوَّةِ الفِعْلِ([2])

يقول: إنه يلقى من اللوم والعذل من أحبته الكثير والكثير ولكنه لا يسمع إلى اللوم ولا ينصت للعذل وذاك لأنه في شغل عن الاستماع فهو مشغول بالغرام أيما انشغال وهي من قوله تعالى: (ِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ](3) ثم يصور حبه بالنار الموقدة ويصور العذل واللوم بالهواء والنار تزداد قوتها بالهواء ويزداد اشتعالها به، كذلك كما زادوا عليه في اللوم والعذل زاد حبه واشتعلت نار هواه. ولا يخفى أن المعنى لطيف يحتاج إلى إعمال فكر وتصور له حتى يتم للسامع فهمه وإدراكه كما أنه اقتبس من القرآن في الشطر الثاني من البيت الأول ثم ركب هذه الصورة للنار والهواء مقابلة بالحب والعذل.

(1) أسرار البلاغة 139.

(2) الخريدة 181/2.

(3) سورة يس 55.

وتعد المبالغة في وصف المعاني وتصويرها صفة من صفات الشخصية المصرية فالمبالغة تزيد المعنى حسناً وجمالاً وقوة ما لم تخرج إلى حد الاستحالة ([1]) والمصريون مغرمون بالمبالغة فهي "من أخص خصائص الشخصية المصرية في كل عصورها" ([2]).

وشاعرنا مغرم بها بل ويلبسها ثوب المجددين بإضافة البديع إليها من جناس وطباق ومقابلة مما يظهرها في ثوب من الصياغة جديد ورائع من ذلك قوله في المقطوعة التي أولها:

وَرِعٌ وَأَرْوَعُ باســـــــــــــــلٌ ** عِنْـــدَ المَحَـــارِبِ والمُحَـــاربْ ([3])

فالمقطوعة برغم ما فيها من مبالغات في المعاني يلعب البديع فيها الدور الأكبر مما يزيد المعنى جمالاً ويضفي عليه رونقاً رائعاً.

ومن المعاني الجديدة عنده قوله مادحاً:

يُغْضِـي عـن الزَّلّـَةِ حتـى يـرَى ** كأَنَّـــهُ مـــن حِلْمِـــهِ مـــا دَرَى

ذو قلـــمٍ يَرْقـُمُ مـــا شـــاءَهُ ** إنشـــاؤُهُ فهـــو كبـــرقٍ سَـــرَى

كأنمـــا القرطـــاسُ فـــي كَفـــِّهِ ** أُودِعَ مـــن أَلْفَاظِـــهِ جَـــوْهَرا

دُونَـكَ مـن عَبْـدِكَ مدحـاً غَـدَا ** قَـدْرُكَ مـن مِقْـدَارِهِ أَكْبَـرا

فاصفحْ عن الهفوةِ في نُطْقِهِ ** إذا تصـــفَّحْتَ الـــذي حُبِّـــرَا([4])

فممدوحه يغضي عن الزلة ويعفو عن الخطأ حتى وإن رآه بأم عينه وكأنه لم يرها ولم يدر بها، ثم إن قلمه يكتب ما شاءه في سرعة البرق فلا يحتاج إلى تفكير أو إعمال عقل فهو يعرف جيداً ماذا يريد فيسعفه عقله وقلمه لحضور العقل

(1) انظر تحرير التحبير 147 والغيث المسجم 139/1 والفن ومذاهبه في الشعر 153.

(2) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين 214.

(3) الخريدة 169/2.

(4) الخريدة 175/2–176–177.

وسرعة البديهة، ثم إنه يعلم أن قدر ممدوحه أكبر من كل شعر فيطلب منه أن يتقبله على حاله، كذا يطلب منه السماح عن الهفوات إن وقعت في شعره فمقام وقدر الممدوح أكبر وأجل.

ومن اقتباسه المعاني من القرآن الكريم والسنة المطهرة قوله:

مَـوْرِدُ المـوتِ واضـحُ المنهـاجِ ** لـيس حـيٌّ مـن الحِمَـامِ بنـاجِ

وسـواءٌ لديـه ثـاوٍ بِقَفْـرٍ ** أوْ بقصـر مُشَـيَّدِ الأَبـراجِ ([1])

فالشطر الثاني من البيت الأول من قوله تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ([2]) ([2]) والبيت لثاني من قوله تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ] ([3])

والشطر الثاني ليس بعيدا عن قوله تعالى (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ] ([4])، وقول الشاعر:

نحـنُ فـي هـذه الحيـاة كَسَـفْرٍ ** ربمـا أُعْجلـوا عـن الإرْوادِ([5])

من قول النبي (ρ) "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

هكذا تدور معاني ابن عرّام بين القديم والجديد فتارة يلبس ثوب القدماء فيغوص في المعاني غوصا ولا يأتيك المعنى إلا بإعمال الفكر والجد في الطلب وتارة تكون سهلة المنال قريبة المآخذ وهو بذلك يراعى حال المخاطب، وعقلية المتلقي، ونراه ينهل من القديم سواء من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أو من معاني الشعراء قبله ولا تعدم عنده الجديد المبتكر من المعاني، يوظفها

(1) الخريدة 172/2.
(2) سورة آل عمران 185.
(3) سورة النساء 78.
(4) الأعراف 34.
(5) الخريدة 174/2.

لخدمة الغرض وربما ذهب إلى المبالغة المعهودة في الشخصية المصرية مع دعابة وخفة ظل تمتع بها أكثر الشعراء المصريين قديما وحديثا.

الخيـــال

يرى النقاد العرب أن الكلام المشتمل على الخيال أروع وأشد تأثيراً في النفس من الكلام الذي يكون حقيقة كله، ولهذا دار على ألسنتهم كثيراً قولهم: المجاز أبلغ من الحقيقة، ورأوه أحسن موقعا في القلوب والأسماع ([1]) ذلك لأن الكلام المشتمل المشتمل على الخيال يجعل النفس شديدة الأنس به سريعة إلى التأثير بصوره"([2])، بصوره"([2])، وشاعرنا يعني ذلك جيداً فنراه في أغلب شعره يتجه ناحية الصور والأخيلة يعبر بها عن المعاني التي تجيش بداخله، ويعلم أن قدرة الخيال أقوى في إيصال المعنى المراد.، وشاعرنا يستمد صوره من عدة موارد منها.

الصورة المستمدة من الطبيعة:

فحين يصف البنفسج ذاك الزهر الأزرق المشرب بالحمرة يراه كأنه آثار عض على خدّ محبوب فيقول:

بنفســـجَهُا غَـــضٌّ يخـــالِطُ زُرْقَـــةً ** كآثارِ عضٍ قد عَلاَ خَدَّ مَحْبوبِ([3])

مَحْبـــــــــــــــــــــــــوبِ([3])

ولا ينسى أن يجانس بين "غض وعض" ليكمل الصورة الرائعة للبنفسج وتراه يقلب هذه الصورة أو التشبيه فيقول:

والخـــدُّ وَرْدٌ والبنفســـجُ فَوْقَـــهُ ** آثـــارُ تقبيـــلٍ بـــبعضِ عِضَـــاضِ

فهو يصور هذا الخد ولونه ما بين حمرة وزرقة بالبنفسج ويقول: إن هذا كأنه من أثر التقبيل والعضاض، ونراه يصور القيان وهن يتطارحن الغناء بالطيور على أفنانها يتطارحن الغناء بتغريد رائع.. يقول:

---

(1) العمدة 187/1.

(2) أسس النقد الأدبي ص 510174.

(3) الخريدة 170/2.

قَمَـرٌ ولكـنْ فـي الغنـاءِ تخالُهـا ** قُمْرِيَّـةً قـد غَـرَّدَتْ بريـاضِ[1]

فهو يصور هذه المغنية بأنها قمر وحينما تغني فهي قمرية تغرد برياض ساحرة ونراه يعكس الصورة فيصور هذه الطيور حين تغرد بصورة القيان اللاتي يتطارحن الغناء يقول:

وقـد غَـرَّدَتْ أَطيـارُهَا فكأنّهـا ** قِيـانٌ يُـرَجِّعْنَ اللحُـونَ بتطريـب(2)

وفي أخرى يقول:

وقـد غَـرَّدَتْ أطيـارُهُ فكـأَنَّها ** قيانٌ تَطارَحْنَ الغناءَ على مَهْل(3)
مَهْـــــــــــــــــــــــــــــــل(3)

ويقول أيضاً:

وصاحَ فِصَاحٌ في الغُصُونِ فخلتها ** قيانـاً تُغَنِّـي لا حمامـاً مُطَوَّقـا(4)

ونراه يصف الأشجار وهي تتمايل بعد أن داعبتها نسائم الهواء فيصورها كأنما سقتها يد الأنواء خمراً معتقاً لا ماءً، فراحت تتمايل وهي ثملة بفعل الخمر كما يتمايل الثمل.. يقول:

تمايلـتِ الأشـجارُ فيهـا كأنَّمـا ** سَقَتها يدُ الأَنـواءِ خمـراً مُعَتَّقـا(5)

ولا شك فى كونها صورة رائعة،وكذلك نراه يرسم صورة النرجس تلك الزهرة الناضرة الناظرة وكأنها ترنو إلى من يرنو إليها فتبادله نظرة بنظرة وكأنها تحدق بمن يحدق بها يقول مصوراً وواصفاً حديقة:

بهـا الـوردُ غَـضٌّ والأقـاحي مُفَلَّـجٌ ** ونَرْجِسُـها يَرْنـو إليـكَ مُحَـدِّقا(1)

---

(1) الخريدة 178/2.

(2) السابق 170/2.

(3) السابق 182/2.

(4) السابق 179/2.

(5) السابق نفسه.

ومن صوره الجديدة الرائعة قوله:

فمـا الحـبُّ إلا النـارُ والعَـذْلُ عنـده ** هواءٌ بـه يـزدادُ فـي قُـوَّةِ الفِعْلِ([2])

فصور الحب بالنار وله الحق فإن المحب يشعر بحرارة الحب بداخله نارا متقدة وربما خبئت هذه النار إذا تعرض المحب للوم والعتاب، ولكن شاعرنا يرى أن اللوم لايزيد نار حبه إلا اشتعالا، فما هذا اللوم والعذل إلا هواءً يزيد النار أواراً ولهيباً. فهذه صورة مستمدة من الطبيعة طابقها الشاعر على تلك الحالة من العشق التي تزداد بكثرة اللوم.

(1) الخريدة 170/2.

(2) الخريدة 181/2.

وهناك صورة مستوحاة من الموروث الفني:

ولا يعيب الشاعر أن يأخذ من سابقيه معاني أو صوراً يصبغ عليها أسلوبه وموهبته دون تقليد أعمى أو سرقة متعمدة، فتوارد الأفكار متاح للجميع وربما وقع الحافر على الحافر. ومن الصور التي اهتم الشعراء بتصويرها قديماً (صورة الجسد المثالي للمرأة) والتي كانت تتمثل في جمال الوجه ودقة الخصر وكبر الأرداف وغيرها من الصفات الجسدية فضلاً عن الصفات النفسية من ذلك قول عمر بن أبى ربيعة:

أبت الروادف والثدي لقمصها ** مس البطون وأن تمس ظهورا

وله أيضاً:

وثيرات أعجاز دقاق خصورها ** طويلات أعناق ثقال الروادف

ولذي الرمة قوله:

بعيدات مهوى كل قرط عقدنه ** لطاف الخصور مشرفات الروادف

وللصنوبري قوله :

وعلى الحدوج مها يقارب خطوها ** ثقل الروادف والخصور خماص

وللسري الرفاء قوله :

إذا خطرت فما للقمص إلا ** مصافحة الروادف والنهود

وللشريف العقيلي قوله:

وظالمة الأرداف مظلومة الخصر ** عقِيقِةُ الخدين فضيةُ الثغر

وللمتنبي قوله:

ترفع ثوبها الأرداف عنها ** فيبقى من وشاحيها شسوعا

وشاعرنا يرسم تلك الصورة للخصر المهضوم الدقيق مع كبر الأرداف فيقول :

أَنْحَلَنـــي بُعْـــــدِيَ عَنْهــا فَقــدْ ** صِـــرْتُ كـأني دِقَّــةً خَصْــرُهَا([1])

يقول إنه صار نحيل الجسم بسبب بعده عن حبيبته حتى أشبه بضعفه دقة خصرها

ويقول أيضاً:

وإِنَّ غَـــــزَالاً كالغزالـــــةِ وَجْهُـــــهُ ** ضـعيفُ القـوى يَسْطُو بليـثٍ أَبـي شِبْل

ومَنْ خَصْرُهُ المهضومُ كَيْفَ مع الضَّنَى ** ينــوءُ بِــرِدْفٍ بــاهظٍ حَمْلُــهُ عَبْــلِ([2])

فهو يصور محبوبته بالغزالة وجهاً وجسداً فهي ضعيفة الجسد رشيقة القوام ومع ذلك تفتك بالليث، فليست القوة بكبر الجسم وإنما هناك قوى أخرى أشد فتكاً تلك قوة العيون الساحرة والجسد الناعم الذي تتساقط أمامه قوى الأقوياء ولو كانت الأسود، فبرغم ضعفها ودقة جسدها أوقعت به في شباكها واقتنصته، ومن دلائل القوة أيضاً أنها برغم صغر خصرها ودقته يستطيع أن يحمل هذا الردف الكبير والذي يعد حمله عبئاً ثقيلاً على من أراد حمله،ثم يعاود فيرسم ذات الصورة بشكل آخر ويقول:

شكوت لها نَهْدَين في الصدرِ باعَدَا ** مُعانِقَها عن ضَمِّهِ وَهْوَ مُغْرَمُ

ولو مَلَكَتْ أَمْرًا لما كانَ خَصْرُها ** على ضَعْفِه من رِدْفِها يَتَظَلَّمُ([3])

فكبر الثدي باعد المعانق رغم شوقه إليها، ولو كانت تملك من أمرها شيئاً لما كان خصرها المهضوم الدقيق يتظلم من حمل هذا الردف الكبير.

فصورة المرأة التي يراها نموذجاً لجمال النساء تتمثل في جمال الوجه ودقة الخصر مع كبر الصدر والأرداف وقد رسم الصورة بأكثر من ريشة فتارة يجعل الخصر قويا جداً لدرجة أنه يستطيع حمل كل هذا الردف وتارة يجعل الخصر

(1) الخريدة 177/2.

(2) الخريدة 182/2.

(3) الخريدة 183/2.

يتألم ويتظلم من حمل الردف وتارة يشبه ضعفه ونحول جسمه بدقة الخصر وضعفه. فتلك الصورة هي من موروث شعري قديم صورها الشعراء من قبل.

وهناك **صور مستوحاةٍ من الطبيعة،** ومن ذلك قوله واصفاً بستاناً وبركة وسواقي:

كـأنّ خريـر المـاءِ فـي جَنَباتِـه ** أَنـينٌ لمهجـورٍ يَحِـنُّ إلـى وَصْـلِ

جَدَاوِلُـهُ تَجْـري عُيُونـاً كأنّهـا ** نُصُولُ سيوفٍ لامعاتٌ من الصَّقْل

فيصور صوت الماء "الخرير" بصوت أنين المهجور الذي تركه أحبته فهو دائم البكاء والأنين ويحلم باليوم الذي يجدد فيه الأحبة وصلهم، وبعد أن صور الصوت المسموع، صور الصورة المرئية فالماء يجري من طرف الساقية في جداول تصافحها أشعة الشمس فكأنها صفحات السيوف المصقولة اللامعة. ([1])

وفي أخرى يقول مصورا ذات الصوت:

كـأنّ هـديرَ المـاءِ عَوْلَـةُ لَوْعـةٍ ** لصـبٍ مَشُـوقٍ لا يُطيـقُ التَّفَرُّقـا([2])

وهنا يصور صوت الماء ببكاء الصب المشوق ولوعته وخوفه من وقوع الفراق على خلاف الصورة الأولى لمن هجره أحبته فهو يبكي آملاً في عودة أحبته، ونراه يصور مجلس عرس فيقول:

كـأنّ دخـانَ النَّـدِّ فـي جَنَباتِهـا ** ضَبَابٌ وماءُ الوردِ غَيْثٌ ترقرقا ([3])

([3])

فهو يعدد الصور في بيت واحد فيصور دخان النّدّ (البخور) بالضباب ويصور ماء الورد الذي يرش على الحاضرين بالغيث المترقرق.

(1) الخريدة 182/2.

(2) الخريدة 179/2.

(3) الخريدة 179/2.

فصورة الدخان وهذا الماء المرشوش بداخله مترقرقاً مع الرائحة الذكية ترسم الصورة في روعة وجمال فائقين.

الموسيقى

(الموسيقى الخارجية)

أ - تلعب الموسيقا بنوعيها – الداخلية والخارجية – دوراً فعالاً في الإبداع الشعري لاسيما وأن الوزن – الموسيقا الخارجية – يعد الفارق الجوهري بين النثر والشعر "فالشعر هو الكلام الموزون المقفى" كما عرفه ابن رشيق وللوزن هذه الأهمية الكبرى في الإبداع الشعري والتي لا يمكن الاستغناء عنه بحال، في حين بعض المحدثين قد يستغنون عن القافية

- وليس الوزن الذي يختاره الشاعر لقصيدته محض صدفة – كما يُظَنُ – وإنما ذلك راجع إلى حالة الشاعر النفسية والتي تجعله يذهب إلى وزن بعينه دون آخر، فلكل غرض شعري له ما يناسبه من الأوزان، فبعض الأغراض تحتاج إلى خفة الوزن وسهولته وبعضها يحتاج إلى الأوزان الطوال ذات النفس الطويل.
- فالكامل والوافر والبسيط والطويل والمديد تستخدم – في الغالب – للقصائد الرصينة ذات الموضوعات المهمة، والمواقف الجادة، بينما يلجأ عادة إلى أوزان بحور السريع والمنسرح والهزج والمتقارب والمتدارك وأضرابها للمعاني الخفيفة،أما الرجز فأكثر ما يستخدم في أراجيز الحروب وفي الشعر التعليمي.

ويربط الغربيون وزن الشعر بنبض القلب الذي هو 76 مرة في الدقيقة للإنسان السليم، ويرون صلة وثيقة بين نبض القلب، وقدرة الجهاز الصوتي على إصدار عدد محدد من المقاطع، وقدروا أن الإنسان – في الأحوال العادية- يمكنه النطق بثلاث مقاطع صوتية مع كل نبضة من نبضات قلبه يعني هذا تغيير نغمة الإنشاء حسب حالة الشاعر النفسية، فعند الفرح والسرور تكون سريعة وعند الألم

والحزن تكون بطيئة والمسلم به أن الإنسان خلال هدوئه يكون أقدر على النطق بمقاطع كثيرة، وحين تلهفه يكون أقل قدرة على النطق ([1])

لذا ارتبط الوزن بحال الشاعر، فحين يتغزل يطيل في نطق المقاطع، ويختلف عنه عند الرثاء أو الحماسة وهذا يختلف من شاعر لآخر، يؤكد ذلك إبراهيم أنيس فيقول: "إن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزناً طويلاً كثير المقاطع.. فإذا قال شعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيراً يتلائم وسرعة التنفس، وازدياد النبضات القلبية"([2])، فالاختيار- غالباً - يخضع إلى الانفعال النفسي فيكون هادئاً حيناً وثائراً حيناً، بطيئاً مرة وسريعاً أخرى.

وأدرك نقاد العرب قديماً أن على الشاعر إذا أراد بناء قصيدة أن يفكر في المعنى الذي يريده وأن يعد له الوزن الذي يسلس له القول عليه ([3]) وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً، ومع أي القوافي يكون أجمل اطراداً، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه والتباثه عليه" ([4]) فحين تهيج عاطفة الحزن عند فقد حبيب أو عزيز، لا يجد الشاعر غير البكاء والدموع ينشرها بين ثنايا أبياته يلملم فيها أحزانه، ويشرح فيها آلامه، وتختلف عواطف الشعراء ويتنوع مستواها عنفاً وهدوءاً وصعوداً وهبوطاً تبعاً للأثر النفسي الذي تركه فَقْدُ حبيب في نفسية الشاعر.

(1) موسيقى أوزان الشعر العربي د/ السيد أبو ذكري طبعة سنة 2001م.

(2) موسيقى الشعر 175–183 طبعة 1965م.

(3) عيار الشعر ص5 لابن طباطبا العلوي تحقيق د/ طه الحاجري، ود/ محمد زغلول سلام (شركة فن الطباعة).

(4) الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص 9.

وغالباً يتطلب الشعر وقت المصيبة بحراً قصيراً يلائم سرعة نبض القلب للشاعر، ومن الأوزان التي تليق بالرثاء وزن الرمل والمديد لما فيهما من لين يليق بالرثاء قال أبو الحسن حازم القرطاجني المتوفى سنة 684هـ:

أما المقاصد التي يقصد فيها إظهار الشجون والاكتئاب، فقد تليق فيها الأعاريض التي فيها حنان ورقة، وقلما يخلو الكلام الرقيق من ضعف مع ذلك... لأن المقصود حسب هذا الغرض أن تحاكي الحال الشجية بما يناسبها من لفظ ونمط تأليف ووزن، فكانت الأعاريض التي بهذه الصفة غير منافية لهذا الغرض، وذلك نحو المديد "([1])

فحين يرثي الشاعر ابنه فيلجأ إلى المقاطع مجزوء الرمل وتفاعيله (فاعلاتن فاعلاتن) في الصدر ومثلها في العجز ليعبر عن سرعة انفعاله وفجائية الحدث بالنسبة له، إذ أَجَّجت وفاة الابن مشاعر الأب دون أن تهبط لتجانس تفاعيل (مجزوء الرمل) وقصر مقاطعها وعبرت عن سرعة التتابع وفجائية الحدث يقول الشاعر:

هـوى ابنـي مـن علـى شـرفٍ ** يهـول عقابـه صـعده
هـوى مـن رأس مـرقبةٍ ** فزلـت رجـله ويـده
فـلا أمٌ فـتـبكيـه ** ولا أخـتٌ فتفتقـده
هـوى عـن صـخرةٍ صـلدٍ ** ففـرت تحتـها كبـده
ألام عـلى تـبـكّـيه ** وألمسـه فـلا أجـده
وكـيف يـلام محـزونٌ ** كبيـرٌ فـاته ولـده([2])

ومثلها قول السلكة أم السليك في رثائه:

(1) راجع مناهج البلغاء وسراج الأدباء ص 266 تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس 1966م.

(2) راجع ديوان الحماسة لأبي تمام 184/2 شرح التبريزي ط 1913م.

طـــــاف يبغـــــي نجـــــوةً ** مـــــن هـــــلاكٍ فـــــهلك
ليـــــت شـــــعري ضـــــلةً ** أي شـــــيءٍ قتـــــلك
أمريـــــضٌ لـــــم تعـــــد ** أم عـــــدوٌ ختـــــلك
أم تـــــولى بـــــك مـــــا ** غـــــال فـــــي الـــــدهر الســـــلك
والمنـــــــايا رصـــــــدٌ ** للفتـــــى حيـــــث ســـــلك
أي شـــــيءٍ حســـــنٍ ** لفـــــتىً لـــــم يـــــك لـــــك
كـــــل شـــــيءٍ قاتـــــلٌ ** حيـــــن تلقـــــى أجلـــــك([1])

وإذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من شعر (علي بن عرّام) وجدنا أكثر نظمه يأتي على بحر الطويل فما سبب اختياره لهذا البحر خاصة؟

وتكمن الإجابة عن هذا السؤال في النظر إلى الأغراض التي سيقت فيها هذه الأفكار فللوزن صلة وثيقة بالمعنى، وخير الأوزان ما لائم الموضوع المختار، وجانس عاطفة الشاعر، ومهمة الناقد كشف صلة المعنى بالوزن، وأثره في قوة النظم، وجمالية الأداء.

فالطويل هو أطول بحور الشعر العربي، وأعظمها أبهة وجلالة، وإليه يعمد أصحاب الرصانة وفيها يفتضح أهل الركاكة والهجنة، وهو أرحب صدراً من البسيط، وأطلق عنانا وألطف نغما، ذلك بأن أصله متقاربي، وأصل البسيط رجزي، ولا يكاد فوزن رجزي يخلو من الجلبة مهما صفا"([2])

وقد أخذ الطويل من حلاوة الوافر دون ابتكاره، ومن الرمل دون لينه المفرط، ومن ترسل المتقارب المحض دون خفته وضيقه، وسلم من جلبة الكامل وكزازة الرجز، وإفادة الطويل أبهةً وجلالةً، فهو البحر المعتدل حقا، ونغمته من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به، وتجد دندنته في الكلام المصوغ فيها

(1) راجع ديوان الحماسة لأبي تمام 379/2.

(2) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 362/1 عبد الله الطيب دار الفكر الطبعة الأولى 1955م.

بمنزلةٍ الإطار الجميل للصورة، يزينها، ولا يشغل الناظر عن حسنها شيئا، والطويل في هذه الناحية يخالف سائر بحور الشعر "([1])

ولذلك تجد القدماء أكثروا منه فكثير من المعلقات جاءت على وزنه، فالطويل صالح لكثير من الأغراض، دلالة ذلك أن المعلقات في مجملها متعددة الأغراض وأصلح ما يكون له الطويل تلك الأغراض القصصية والأسطورية، "ولذلك يكثر في الفخر والحماسة والوصف والتأريخ والمدح"([2])

وأكثر ما بين أيدينا من شعر علي بن عرّام هو في المدح والوصف والفخر، لذا فقد أكثر من الطويل ليلائم ما بين الوزن والغرض.

وأرى أنه كان يروقه هذا البحر أيضاً كما كان يروق القدماء والشعراء الكبار الذين يقدرون لهذا الوزن أبهته وجلالته، فهو دائماً يرتدي ثوب الكبار – وهو منهم – فيركب وزن الطويل ويخوض بِهِ في حلبة الشعر ويصول ويجول لينتج هذه القصائد الفخمة شكلاً ومضموناً.

وقد استخدم شاعرنا هذا البحر عشرين مرة ما بين قصيدة ومقطعة وجاءت في نحو 137 بيتاً تنوعت ما بين المدح والوصف والغزل والحماسة والحكمة ومن تلك المطالع المصرعة على وزن الطويل قوله في مدح عز الدين موسك الناصري: -

بلغت بسعد المجد أسمى المراتب ** فناج إذا ما شئت زهر الكواكب([3])
الكواكب([3])

وفي قصيدة طويلة أخرى في مدح توران شاه الأيوبي وآل أيوب قوله:

أرقت لبرق يف الدجنة مشبوب ** ودمع سحاب ناشئ منه مسكوب([4])
مســـــــــــــــــــــكوب([4])

وله في الأمير مبارك بن منقذ قوله:

---

(1) المر السابق نفسه.

(2) أصول النقد الأدبي ص 297 نقلاً عن أسس النقد العرب ص 344.

(3) الخريدة 167/2.

(4) الخريدة 166/2.

لجـأت إلـى خيـر الأنـام ابـن منقـذ ** ليكون من أسر الحوادث منقذي([1])

منقـــــــــــــــــــــــذى([1])

وله في الحكمة قوله:

أعنِّـي وقـد لاح المشـيب بعارضـي ** وفيــه لعمــري واعــظ أي واعــظ

ويأتي بحر الخفيف في المرتبة الثانية من استخدام (علي ابن عرّام) فقد نظم عليه سبع مرات ما بين قصيدة ومقطوعة جاءت في 52 بيتاً.

والخفيف بحر يجنح إلى الفخامة، فهو واضح النغم والتفعيلات، وهو مزيج من الرمل والمتقارب، بما يجعله متدفقا فى قوة واعتدال مع جلجلة لا تخفى، وقد استخدمه القدماء من شعراء ربيعة والحيرة تجده فى شعر المهلهل وعدي بن زيد والأعشى، وهو من بحور الشعر المقدمات عند إسلامي الحجاز بل صار البحر الأول بلا ريب، وأكثر منه ابن أبي ربيعة وأضرابه واتخذوا من وزنه الرصين ذو الرنة العالية مركباً لكلامهم الناعم المرقق أكسبه موسيقا حيّة تجل عن رتابة السريع وتعثر الأحذ، وتكسر المنسرح وتثنيه، وتصبغ غزل الرجال في النساء بما هو حقه من فحولة في تأت وتلطف"([2])

ويصلح لهذا الوزن الغزل والحماسة والمديح والهجاء والرثاء والفخر، وفي كلٍ فهو ذو طابع واحد في وضوح النغم واعتداله، بحيث لا يبلغ حد اللين ولا حد العنف ولكن يأخذ من كل بنصيب.

ولشاعرنا (علي بن عرّام) قصيدة يرثي بها العلويين من الخفيف قال في أولها:-

مــورد المــوت واضــح المنهــاج ** لــيس حــي مــن الأنــام بنــاج ([3])

وله أخرى تنشد على المقابر أولها:-

---

(1) الخريدة 175/2.

(2) المرشد 191/1–193.

(3) الخريدة 2\ 172.

الـــــردى للأنـــــام بالمرصـــــاد ** كـــل حـــي منـــه علـــى ميعـــاد [1]

وله في رثاء ابن عمه هبة الدين بن عرّام:

مـن لسـو الخطـوب غيـرك يجليهـا ** وقـد غـاب منـك بـدر منيـر [2]

وله من الغزل على وزن الخفيف قوله:

كـــم ليـــال نعمـــت فيهـــا بخـــود ** فاقت البدر في السنا والسناء [3]

ويأتي بعد الطويل الخفيف السريع ثم المتقارب ثم الكامل ثم الوافر ثم البسيط وإليك إحصائية بالبحور التي نظم عليها:

(1) السابق 174/2.

(2) السابق 176/2.

(3) السابق 166/2.

البحر	عدد مرات النظم	عدد الأبيات
الطويل	20	137
الخفيف	7	52
السريع	7	20
المتقارب	5	20
الكامل	4	20
الوافر	2	9
البسيط	1	7
مجزوء الرمل	2	6
المجتث	3	6
الرجز	1	5
المنسرح	2	5
مجزوء الرجز	1	2
مخلع البسيط	1	2
عدد الأبحر التي استخدمها 13 بحرا	**إجمالي المقطعات 56**	**إجمالى الأبيات 283**

الموسيقى الداخلية

وهي التي تقوم على جرس الألفاظ وإيحائها، وتتمثل في اختيار ألفاظ خاصة تعبر عن انفعالات خاصة للشاعر وحالته النفسية التي تسيطر عليه أثناء ولادة القصيدة، وهذه الحالة النفسية السارية في ثنايا القصيدة يسميها النقاد بالموسيقى الخفية، وعليه فلابد للشاعر من اختيار ألفاظه بدقة وعناية ذاك لأن الشاعر "إذا أتقن اختيار الألفاظ كان لها وقعاً موسيقياً مؤثراً، حيث إن موسيقى اللفظ لها تأثير مستقل تمام الاستقلال عن تأثيرات المعاني" ([1])

وهنا تبرز أهمية الموسيقى الداخلية في تشكيل موسيقا أقدر على الاتصال بالأحاسيس الداخلية والانفعالات النفسية، فاتجه الشعراء إلى خلق حالات من الإيحاء عن طريق موسيقا اللفظ، وإلى الإلحاح على استخدام الكلمة كدلالة وكصوت انفعالي"([2])

ولا ريب في أن الموسيقى الداخلية بنغماتها اللفظية ومقاطعها الصوتية لابد أن تختلف من غرض لآخر، فهناك ألفاظ لا تصلح في الرثاء وهي مطلوبة في الغزل وغيرها مطلوب في الحماسة وغير محبب في النسيب أو غيره، وهكذا فلكل غرض ما يناسبه من ألفاظ هي أولى به من غيره وذلك لما تحمله بداخلها من جرس موسيقي يتراوح بين الشدة والقوة والرقة والحنو، وعليه كان إبداع الشعراء في اختيار الألفاظ يمثل فارقاً كبيراً بين شاعر وآخر،فواحد يجيد اختيار ألفاظه وآخر لا يملك تلك الحاسة، فانسجام الموسيقا ينشأ من ملاءمة الموسيقا للتجربة الشعرية عند الشاعر، وبذلك يكون قادراً على إحداث الإيقاع المميز عن طريق الألفاظ والحروف والمقاطع والتناغم الموسيقي.

وشاعرنا حين يتغزل في محبوبته وسط رياض حسان يتخير من الألفاظ ما يشيع هذا الجو من الحب و الدفء والجمال في تناغم وانسجام،يقول:

---

(1) بتصرف من التوجيه الأدبي 138 طه حسين وآخرون، دارالمعارف 1981م.

(2) لغة الشعر العربي الحديث اتجاهاتها الفنية وطاقاتها الإبداعية ص 276 السعيد الورقي، دار النهضة العربية، ط1، 1984م.

كـــم ليـــالٍ نَعِمْـــتُ فيهـــا بِخَـــوْدٍ ** فاتـتِ البـدرَ فـي السَّـنَا والسَّـنَاءِ
ذات جيـــدٍ كـــالريمِ حَـــلاَّهُ عِقْـــدٌ ** حـــلَّ فيـــه بحـــلٍّ عَقْـــدِ عَزَائـــي
وترشَّـــفْتُ مـــن رُضـــابٍ بَـــرُودٍ ** فـــاقَ طَعْـــمَ السُّـــلافَةِ الصَّـــهْبَاءِ
وتنزهـــتُ فـــي ريـــاضٍ حِسَـــانٍ ** غانيـاتٍ عَـنْ صَـوْبِ مـاءِ السـماء
بـــيْنَ وَرْدٍ وَنَـــرْجِسٍ وأَقَـــاحٍ ** ففـــؤادي مُقَسَّـــمُ الأَهـــوَاء

ففي الأبيات يشيع ذاك الجو من الحب الدفئ متناغماً مع ألفاظ ترسم تلك الحالة بنغمات حسان مثل " نعمت – خود- البدر – السنا – السناء – جيد – الريم – حلاه - عقد – تنزهت – رياض – حسان – غانيات – ماء السماء – ترشفت – السلافة – الصهباء – ورد – نرجس – أقاح – فؤادي".

كلها ألفاظ هي أصلح ما تكون للغرض، وموسيقى الألفاظ معبرة عن هذه الحالة من الفرح والسعادة التي يعيشها الشاعر، كما أن هناك موسيقى أخرى بالأبيات باختياره تلك المقاطع الموسيقية الموحية كقوله: السنا والسناء"، السلافة الصهباء، صوب ماء السماء، مقسم الأهواء وبين رياض برود ورياض حسان" وبين "ورد، ونرجس، وأقاح"، كذلك تكرار حرف الحاء في البيت الثاني في كلمات حلاه – حل – بحل "وكذلك تكرار حرف السين بماله من رقة وهمس في كلمات " السنا والسناء السلافة، حسان ونرجس مقسم، وما شاكله من حرف الصاد في كلمات الصهباء، صوب" ونراه يتخير في المديح ألفاظاً تتلاءم مع الغرض، فألفاظه ذات جرس موسيقي عالٍ، وصيغ تتلاحم مع المعنى المراد متناغمة مع نفسية الشاعر من ذلك قوله مادحاً:-

وَرِعٌ وَأَرْوَعُ باســـــــــــــلٌ ** عِنْـــدَ المَحَـــارِبِ والمُحَـــاربْ

الأبيات، فأولاً: لو نظر إلى اختيار الألفاظ للمدح سنجد ما يتوافق معه تماماً مثل: ورع – اروع – باسل – المعارف – سمر العوالي – العلا ".
فكلها ترسم صورة الممدوح – أي ممدوح – في أبهى حلة.

وموسيقاها تنطوي على جرس رائع مثل: "ورع – أروع" وما بينهما من جناس وكذلك صيغة (مفاعل) بجرسها القوي في كلمات "مَحارب – مُحارب –

معازف – معارف – مشاعر – مشارب – كواعب" وما لها من دلالات موسيقية رائعة ووقع في الآذان متناغم متناسق، كما نلاحظ حرف الراء برفته العالية ونغمته التكرارية في كلمات "ورع – أروع – محارب – مُحارب – معارف – مشاعر – مشارب – سحر"

وانظر إلى الجناس في قوله "ورع أروع، ومَحَارب ومُحارب، ومعارف ومعازف، ومشاعر ومشارب، والعوالي والعلا"، وكذالك المقابلة بين "سحر وبيض- والعوالي والكواعب"

فالأبيات الثلاثة تحمل الكثير من الموسيقى الداخلية تدل على حرفية عالية واختبارات دقيقة وإن كان يشوبها الصنعة والتكلف إلا أنها تموج بألوان البديع وجمال النغم وروعة الشعر.

هكذا فأغلب اختيارات الشاعر لألفاظه كانت دقيقة موحية ذات موسيقى متلائمة مع الغرض الشعري، ومتوافقة مع نفسية الشاعر حال ولادة القصيد.

وما من شك في أن المذهب البديعي الذي شاع آنذاك كان له أثره الكبير في شعر الشاعر، بما أضفاه على شعره من موسيقى رائعة ونغمات حالمة.

ثبت بأشعار (علي بن عّرام)

قال: من الخفيف

كـم ليـــالٍ نَعِمْـتُ فيهـا بِخَـوْدٍ ** فاتـتِ البدرَ فـي السَّنَا والسَّنَاءِ([1])
ذات جيـــدٍ كـــالريمِ حَـــلاَّهُ عِقْـــدٌ ** حَـلَّ فيـــه بحـلٍّ عَقـــدِ عَزَائـي
وترشَّـــفْتُ مـــن رُضـــابٍ بَـــرُودٍ ** فـاقَ طَعْمَ السُّـــلافَةِ الصَّهْبَاء ([2])
([2])
وتنزهـــتُ فـــي ريـــاضٍ حِسَـــانٍ ** غانيـاتٍ عَـنْ صَـوْبِ مـاءِ السماء
بَـــيْنَ وَرْدٍ وَنَـــرْجِسٍ وأَقَـــاحٍ ** ففـــؤادي مُقَسَّـــمُ الأَهْـــوَاء([3])

وله من الوافر:

أَلاَ مَـــنْ مُبْلِـــغٌ سُـــعْدَى بـــأَني ** ظَمِئْـــتُ إلـــى مراشـــفها العِـــذَابِ
فـــإني والمهـــيمنِ مُنْـــذُ بانَـــتْ ** رأيـتُ الشَّـوْقَ مـن أَلَـم العَـذَابِ([4])

وله من المجتث:

حللـــــتَ قلبـــــي فعينـــــي ** عليـــــكَ تَحْسُـــــدُ قَلْبَـــــا
فمـــــــا أرَى البُعْـــــــدَ إلاَّ ** قـــد زادنـــي منـــكَ قُرْبَـــا([5])

وله من الطويل:

أَغـرَّكِ مـن قلبـي انعطـافٌ ورقّـةٌ ** عليـكِ وأَنْ تَجْنِـي فَـــلاَ أَتَـجَنَّبُ

---

(1) الخود: الشابة الناعمة.

(2) الرضاب: الريق، ترضب المرأة: ترشف رضابها، وبات يرضب ريقها، السلافة: هي أفضل أفضل الخمر وأخلصها، والصهباء: الضاربة في البياض هي علم على الخمر وسميت بذلك للونها، قيل: هي التي عصرت من عنب أبيض.

(3) الخريدة 166/2.

(4) السابق نفسه.

(5) السابق نفسه.

فـلا تـأْمَني حلْمـي علـى كـلِّ هَفْـوَةٍ ** ولا تحسبي أَنْ لَيْسَ لي عنكِ مَذْهَب
وكيـف وعنـدي فَضْـلـةٌ مـن جَـلاَدَةٍ ** تُعَلِّمُ أَصـلاَدَ الصّـفَا كيفَ تَصْلُبُ([1])

وله من المتقارب:

كتبـــتُ ولـــو أَنَّنـــي أَسْـــتَطيعُ ** مـن الشـوق والوجـدِ كنـتُ الكتابـا
بحيـــثُ أَبُثُّـــكَ مِنِّـــي إليـــــك ** حـديثي وأَسْـــمَعُ مِنْـكَ الجوابـا([2])

وله تهنئة بمولود:

قــد أَطلــعَ اللــــهُ لنـــــا كوكبـــاً ** أَضـــاءَ شـــرقَ الأرضِ والمغربـــا
قـــادمُ سَعـــدٍ يَقْتَضِـــي سَـــعـــدُهُ ** ســـــعادةَ الـــــوالد إِذْ أَنْجَبَـــا
والأَصْـــلُ إِنْ طـــابَ ثَـــرَى غَرْسِـــهِ ** أَنْبَـــتَ فَـــرْعاً مُثْـــــمِراً طَيِّبـــا
مَوْهِبـــــةٌ خـــصَّ بهـــا اللّهُ مـــنْ ** أَصْـــــبَحَ للنعمـــةِ مُسْـــــتوْجِبَا
فَـــدُمْ قريـــرَ العـــينِ حَتَّـــى تَـــرَى ** خَـلْـفَـكَ مـــن إِخـــوانه مَوْكِبَـا([3])

وله من قصيدة في عز الدين موسك الناصري وكان والي قوص وأسوان من الطويل:

بَلَغْـتَ بِسَـعْدِ الجـدِّ أَسْـنَى المراتـبِ ** فنـاجِ إذا مـا شـئتَ زُهْـرَ الكواكـبِ

ومنها:

يُبيحون فـي سُبْلِ المكـارمِ مـا غَـدَتْ ** تُبيحُهُمُ في الرَّوْع بيضُ القَضائبِ([4])

---

(1) أصلاد: الأصلاد هي الصخور الملساء اليابسة ومنه قوله تعالى " فتركه صلدا، والصفا الجبل المعروف.

(2) الخريدة 167/2.

(3) الخريدة 167/2.

القَضـــــــــــــــــــائبِ[1]

فـآراؤهُمْ تكفـي النصـالَ نصـالَهُمْ ** كمـا كُتْبُهُمْ تُغْنِـي غَنَـاءَ الكتـائب[2]

ومنها:

أقـولُ لِمَمْـــوٍ برَيْـــبِ زمـــــانهِ ** ومَن ظلَّ مَعْضوضاً بنـابِ النَّوائب

ومـن أَخَـذَتْ منـه التَّنـائفُ والسُّرَى ** فلـيس تـــراهُ غيـرَ أَغْبَرَ شاحبِ

عليـكَ بعـزِّ الـدين فاســـتَذِرْ ظِلَّـهُ ** ولُـذْ بعزيـزِ الجـارِ رَحْـبِ الجـوانب

إذا ظَمِئَـتْ سُـــمْرُ الرمـاحِ بـــكفِّه ** سَـقَاها فـروّاها دمـاءَ الترائـبِ[3]

التـرائـــــــــــــــــــبِ[3]

ومنها:

بأفعالـكَ الحُسْـنَى بَلَغْـتَ إلـى العُـلا ** وأَصبَحْتَ فَرْداً في اجتنـابِ المعَايبِ

فهـا أنـتَ مَرْضِـيُّ الشـمائلِ ماجِـدٌ ** كريمُ الســـــجايا طيِّبٌ مـن أَطَايب

قصـــدناكَ يـا خيـــرَ الأَنـامِ لنكبـةٍ ** عرَت أَقْصَدَتْنا بالســـهامِ الصوائب

وقـد وَثِقَـتْ آمالُنَـا أَنّ قَصْـــدَنَا ** جَنَابَكَ يا خيـــرَ الورى غَيْرُ خائب

وقـد عَلِقَـتْ أَيْمَـــانُنَا مـنكَ ذِمَّـةً ** وَقَتْنَا مُلِمَّاتِ الزمـــانِ المُغَـــالب

وإن لـم تَسَـعْنَا منـكَ عَطْفَـةُ راحـمٍ ** وإلا فَقَدْ ضـاقتْ فِجـاجُ المَذَاهبِ[4]

المَـــــــــــــــــذَاهبِ[4]

ومنها:

ودونَـــك معروفـــاً يُفيـــدك عـــاجلاً ** ثنـاءً ويَبْقَـى أَجْـرُهُ فـي العواقـب

(1) الروع: الفزع، والقضائب: جمع قضيب وهو السيف.

(2) الخريدة 167/2.

(3) الترائب: موضع القلادة من الصدر، وقيل ما بين الترقوة إلى الثندوة وقيل عظام الصدر. الصدر.

(4) الفجاج: جمع فج وهو الطريق الخريد 168/2.

وله من قطعة في مرض ممدوح من المنسرح:

قد قلتُ ليت الشَّكَاةَ قَدْ نَزَلَتْ ** بِمُهْجَتي لا بأَوْحَدِ العَرَبِ
ليستْ بِحُمَّى وإنما اشْتَعَلَتْ ** نيرانُ فرطِ الذكاء باللهبِ
قد خَلُصَ الجسمُ من أذاه كما ** تَنْقَى بِسبكٍ خُلاَصةُ الذَّهَبِ([1])

وله من قصيدة في الأمير مبارك بن منقذ:

همُ حَمَّلوا ثِقْلَ المغارمِ مَالَهُمْ ** وخَلَّوْهُ وَقْفاً بينهمْ لِلْمَنَاهِبِ
صفائحُ في أَيديهمُ أَو صحائفٌ ** فهمْ بين كُتْبٍ تُقْتَنَى أَوْ كَتَائبِ
هواهمْ على أنَّ المآربَ جَمَّةٌ ** صريرُ يراعٍ أَوْ صَليلُ قَوَاضِب
وجادوا بفضلٍ باهرٍ وفضائلٍ ** عَطاءَيْنِ من عِلْمٍ وَفَيْضِ مَوَاهب

ومنها:

مدحتك فاسمعْ من مديحيَ قَهْوةً ** تلذُّ لذي سمعٍ وَنَشْوَانَ شاربِ
عليَّ امتداحي للكرام مناصباً ** فذلك أحلى من غناء الجنائب

وله من أخرى من مجزوء الكامل:

وَرِعٌ وَأَرْوَعُ باسلٌ ** عِنْدَ المَحَارِبِ والمُحَاربْ
يَهَوى المعارِفَ لا المعا ** زِفَ والمشاعِرَ لا المشارِبْ
سُمْرُ العوالي في العُلاَ ** تُلْهيه عن بيضِ الكواعب([2])

وله من قصيدة في الملك المعظم سلطان اليمن شمس الدولة توران شاه بن يوب، وكانت بلاد الصعيد له من أخيه قبل اليمن، يصف فيها دمشق فإن الممدوح كان يعجبه ذلك من الطويل:

---

(1) الصرير: الصوت والراع: القصبة التي ينفخ بها الراعي والمقصود هنا صوت نفير الجهاد، الجهاد، والقواضب: السيوف القاطعة، وصليل القواضب صوت السيوف ساعة القطع.

(2) الخريدة 1669/2.

أرقــتُ لبــرقٍ فــي الدُّجُنَّــةِ مشــبوبِ ** ودمــعِ ســحابٍ ناشــىءٍ منــه مسكوبِ([1])

فَمِــنْ قلــبِ صــــبٍ لَفْحُــهُ وَخُفُوقُــهُ ** كمــا غَيْثُــهُ مِــنْ مَــدْمَعٍ منــه مصــبوبِ

ولــم أَرَ نــــاراً مــن ميــاهٍ وَقُودُهَــا ** ألا إنَّ هــذا مــن فُنــــون الأعــــاجيب

وبــي جِنَّــةٌ مــن ذكــرِ جَنَّــات جِلَّــقٍ ** وَجَنَّــةُ مُشْــــتَاقٍ وأَنَّــةُ مَكْــرُوبِ([2])

وفي شرف الوادي وفي النيربِ اغتدتْ ** مــآربُ للغــرِّ الكــرامِ الأَعــاريــب

فيــا بَــرَدى هــل جُرْعَــةٌ منــك عَذْبَــةٌ ** لتبريــدِ حَــرٍ فــي الجــوانحِ مشــبوب

ويــا نهــرَ ثَــوْرا قــد أَثَــرْتَ صَــبَابةً ** لقلــبٍ شــجٍ مــن لوعــةِ الحــبِّ مَثْــذُوبِ

وهــل لســراةِ النــاسِ عِلْــمٌ بــأنني ** ظمئــتُ إلــى مــاءٍ ببانــاسَ مَشْــروبِ

وهــا أنــا مستســقٍ لِمــزَّةَ مُزْنَــةً ** كَفَتْهــا عُيــونٌ مَــدُّها مــن أَهاضــيب

ويــا ذا الجــلالِ احرس حَرَسْتَا فَحُسْنُها ** شــــفاءٌ لمــــهمومٍ ودأْء لمطبــوب

ودومــةُ دامَ العــيشُ حلــواً بربعهــا ** وواهــاً لــه لــو أنــه غيــرُ مســلوب

وفــي بــرزةٍ مكحولــةُ الطــرفِ بَــرْزَةٌ ** تُصَــبِّرُني للوجــد منهــا، وتُغْــرى بــي

ويــا حســنَ ولــدانٍ تَرَامُــوْا بطابــةٍ ** فمــن غالــبٍ عنــد النضــالِ وَمَغْلُــوبِ

وَدِدْتُ حُلــولي فــي ريــاضــكِ حَلَّــةً ** وهيهــاتَ أيــن الشــامُ مــن بلــدِ النُّــوبِ

بنفســيَ مــن تَجْنِــي وأَحْمِــلُ عَتْبَهــا ** وَيَعْــذُبُ عَيْشــي فــي هواهــا بِتَعْــذِيبي

كظبــيٍ يصــيدُ الليــث قَمْــراً فيغتــدي ** مــن الرُّعْــبِ مأسوراً بفتكــةِ رعبــوب([3])

لــئن قَصَّــرتْ بالقصــرِ عمــا أَلِفْتُــهُ ** وقــد كنــتُ عنهــا قَبْلَهــا غيــر محجــوب

---

(1) الدجنة: الغيم المطبق تطبيقا، الريان المظلم، مشبوب: جميل حسن الوجه.

(2) جنات جلق: قرية بالشام.

(3) رعبوب الأصل أنها وصف للحم السمين الغليظ يقال: أطعمنا رعبوبة من سنام عنده، وسميت الجارية رعبوبة من هذا وهي البيضاء الممتلئة.

فقد جَسَرَتْ بالجسرِ وهي جَبَانةٌ ** وزارت بليلٍ أَسودِ اللونِ غِرْبيب([1])

نَعِمْتُ بها في جَنَّةٍ عُجِّلَتْ لنا ** بِجِلَّقَ إِذْ لَهْوِي بها غيرُ مَقْضُوبِ

مغانٍ غوانٍ من عيونٍ بسفحها ** وقيعانِها عن ساجمِ الغيثِ شُؤْبوب([2])

بنفسجُهُا غَضٌّ يخالِطُ زُرْقَةً ** كآثارِ عضٍ قد عَلاَ خَدَّ مَحْبوبِ

ونَرْجِسُها المبثوثُ فيها كأَعْين ** بَدَتْ فاتراتٍ من خَصَاصةِ تَنْقيب

وقد غَرَّدَتْ أَطيارُهَا فكأنّها ** قِيانٌ يُرَجِّعْنَ اللحُونَ بتطريب

رياضٌ نضيراتٌ تَرفٌ كأَنّها ** سَقَاها فَرَوَّاها بَنَانُ ابنِ أَيُّوبِ

ومنها يصف وصولهم إلى مصر حين نزل الفرنج عليها من الطويل:

ولما دُعُوا من مِصرَ لَبُّوا دعاءَنا ** على كلِّ نَهْدٍ لَيِّنِ العُنْقِ يَعْبُوبِ([3])

يَعْبُوبِ([3])

فأردَى كماةَ الروم شدَّةُ بَطْشهِمْ ** فهم بين مطلولِ الدماء ومطلوب

فلستَ ترى في عصبةِ الشركِ حاملاً ** صليباً ولا عِلْجاً لهم غيرَ مَصْلوب

وحسبهمُ ذاكَ الطعانُ الذي غَدَتْ ** بهم قِصَداً فيهم صدورُ الأنابيب

وظلَّ عميدُ الرومِ من حَذَرِ الرَّدَى ** يَؤُمُّ طريقاً بينهم غيرَ ملحوب([4])

ونَكَّبَ عن مصرٍ وَوَلَّى بمَنْكَبٍ ** جريحٍ بأنيابِ النوائبِ مَنْكُوبِ

---

(1) غربيب: أسود.

(2) الشؤبوب: الدفعة من المطر.

(3) نهد: النهد الثدي والنهد وصف للخيل وهو الجسيم المشرق القوي الضخم، واليعبوب: الفرس.

(4) غير ملحوب: غير مُعَبَّد.

وقد كادَ ديــنُ اللهِ يَخْفتُ نُــورُه ** ويُرْمَى بتبديـلٍ وشيــكٍ وتقليب

فحصَّـــنْتُمُوهُ بالأَسِـــنَّةِ والظُّبَــا ** وتصعيدِ آراءٍ كَفَتْـهُ وتَصْــويب[1]

وتَصْـــــــــــــــــويب[1]

فلست ترى إلا مَحَاريبَ في وغى ** حَمَوْا بيضةَ الإسلامِ أَوْفى مَحَاريبِ

ومنها:

ومـا المــلْكُ إلا لائـــقٌ بأَخيـــكُمُ ** وغارِبُـهُ إلاّ لَـهُ غيـرُ مَرْكـوبِ[2]

أنتم نجومٌ وهو كالشمسِ ضَوْءُها ** مَلِـيٌّ بتَشْـــرِيقٍ يَعُـمُّ وتغــريب

أَيُوســفَ مصرٍ إنما أَنْتَ يوسُفٌ ** فأَنْتَ ابنُ أَيُّوبٍ وذاكَ ابنُ يعقوب

ومـا بَرِحَتْ مصــرٌ قديماً حُمَاتُها ** ببعثٍ من القُطْرِ الشــآميِّ مَجْلوبِ

وله من مجزوء الكامل:

لـــو كنـــتُ أَعْـــلَمُ أننـــي ** أَلقـــى لبُعـــدكِ مـــا لقيـــتُ

لأَقَمْـــتُ عنـــدكِ مـــا بقيـــتِ ** علـــى الحيـــاةِ ومـــا بقيـــتُ

فلـــئن نَعِمـــتُ بقـــرْبكمْ ** فبِنـــأْيِكُمْ عَنِّـــي شَـــقِيتُ[3]

وله من المتقارب:

إذا ســاءَ خُلْــقُ كَــريمِ الرجــالِ ** لضــيقٍ مــن الحــالِ أَو نكبــةِ

فــإني ملــيءٌ بصــبرٍ جميــلٍ ** يُحَسِّـنُ فـي عُسْـرَتي عِشْـرَتي[1]

(1) الظُّبا: سمة على الفرس.

(2) الغارب: ما يوضع على البعير للركوب عليه والقصيدة بالخريدة 166/2–171.

(3) الخريدة 171/2.

وله في الهجو من مجزوء الرجز:

شـــــــاعرُنا ذو لحيـــــــةٍ ** قـــد عَرَضَـــتْ وانفَسَـــحَتْ

لحيـــــةُ تـــــيسٍ صَـــــلُحَتْ ** لِفَقْحَـــةٍ قـــد سَـــــلَحَتْ([2])

وله من الخفيف :

قد طوىَ بعدَ أَرْضِكم سُوقَ شوقٍ ** وَرَمَى بي فجـــاجَ كـــلِّ فـــلاةٍ

ظـــلَّ للقلـــبِ مُزْعِجـــاً مُسْـــتَحِثًّا ** جُبْتُ حَزْنـاً مِـنْكُمْ إليـه وَوَعْثَـا([3])

وله قصيدة يرثي بها بعض العلويين من الخفيف:

مَـوْرِدُ المـوتِ واضـحُ المنهـاجِ ** لـيس حـيٌّ مـن الحِمَـامِ بنـاجِ

وســـــواءٌ لديـــه ثـــاوٍ بِقَفـْرٍ ** أوْ بقصـــر مُشَـــيَّدِ الأَبـــراجِ

ومنها:

إنمـــا هـــذه الحيـــاةُ غُـــرورٌ ** كسـرابٍ بـدا لنـا فـي فِجَـاجِ

تُتْبِعُ الحلوَ مَن جَنَى عَيْشِها الحُلْوِ ** بِمُـرٍ مـن الرزايـــا أُجَـاج

نحنُ فيها كمثلِ ركبٍ أَنـــاخوا ** سـاعةً ثـم أُرْهِقـوا بانزعـاج([4])

وله يعتذر من الهجو من السريع:

أُحْوِجْـتُ فـي رَقْـمِ أَهـاجيهمُ ** واللـومُ مصـروفٌ لمـن هاجَهَـا

لـو لـم يكـنْ تقبـيحُهُمْ زائـداً ** لكنـتُ قـد عَفَّيْـتُ منهـاجَـها([1])

---

(1) الخريدة 171/2.

([2]) الفقحة: الدبر الواسع ثم أصبح كل دبر فقحة، وفقح الشئ يفقحه فقحا سفه كما يسف الدواء، وسلحت الناقة من البقل وغيره أي أكلت.

([3]) تقول وعث: مشى في الوعثاء أي في طريق يصعب فيه المشي.

([4]) الخريدة 172/2.

وله من المجتث:

إنـــــي وإن كنـــــتُ أَمْضَـــــي ** مـــــن الظُّبَـــــا والرِّمـــــاحِ
فالحـــــــبُّ أَنَفـــــذُ منِّـــــي ** يـــــا صـــــاحِ فـــــي الأرْواحِ([2])

وله من قصيدة أولها من الكامل:

الوَجْـــــدُ للـدنفِ المُعَنَّـى فاضـحُ ** ودليلُـــهُ بـــادٍ عليـــه وَوَاضِـــحُ
كيـفَ الســـــبيلُ لـه إلـى كِتْمانِـه ** والـدمعُ والسَّـقَمُ المُبَـرِّحُ بـارحُ
إن يُمْـسِ قلبـي وهـو صـبٌّ نـازحٌ ** فـلأنّ مـن يهـواهُ عنـهُ نـــازحُ
فجـوارحي وجـداً عليـه جَرِيحـةٌ ** وجـوانحي شَـوْقاً إليـهِ جَـوَانح([3])

وله من قصيدة في مدح الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب أخي الملك الناصر يصف عصيان المعروف بالكنز من السريع:

فـأيْنَ يَنْجُـــو هـــائبٌ هـــارِبٌ ** مـن نكبـةٍ شـنعاءَ ذاتِ اجتيـاحْ([4])
إنَّـى وظهـرُ الأرضِ مَـعْ بطنهـا ** لناصـرِ الإسـلامِ فـي بَطْـنِ راحْ

وله من قصيدة من الكامل:

وإذا انتَضَـى سـيفاً هنـاك فنصـلُهُ ** فـي غِمْـدِ ثَجَّـاجٍ مـن الـدم مُزْبِـدِ([5])
وكأنمـا هـو مُغْمَـدٌ فـي هـــامِهِمْ ** فلـذاك يُلْفَـى الـدهرَ غيـرَ مُجَـرَّد

([1]) عفيت: هجرت وعَفَّتْ بمعنى دَرَسَتْ والأبيات بالسابق نفسه.

(2) الخريدة 172/2.

(3) الجوانح: أضلاع الصدر، الخريدة 173/2.

(4) الهائب: الخائف والبيتين بالخريدة 171/2.

(5) الثجاج: للماء والمطر والدم بمعنى المنصب، وهو هنا صفة للسيف، لزبد: الدم المزبد الذي ثج من صاحبه حتى زبد أي جمد والبيتين بالخريدة 173/2.

وله من قصيدة في ابن عين الزمان من الطويل:

يزيـدُ ضـياءُ الحسـنِ مـن أَلْمَعِيَّـةٍ ** مصـادِرُ مـا تأتيـه قبـلَ المـوارد

ومنها:

فـإن ينقـرضْ عـيْنُ الزمـانِ فإنـه ** لإنسانِ تلك العينِ عينُ المُشاهدِ([1])

المُشـــــــــــــــاهدِ([1])

وله من قصيدة من الطويل:

كريـــــمٌ عليمٌ فهو يَلْقَى مديحه ** ومادِحَهُ في الناس بالنَّقْدِ والنقدِ([2])

والنقـــــــــــــــــــدِ([2])

ترى الخيرَ طبعاً في علاه عزيمةً ** فهل كان مَهْدِيًّا لـذاك من المَهْدِ

وله من قصيدة تنشد على المقابر أولها وهي من الخفيف:

الـــرَّدَى للأَنـــــــامِ بالمرصـــادِ ** كـلُّ حـيٍ منـه علـى مِيـــعادِ

كيـفَ يُرْجَـى ثبـاتُ أَمـرِ زمـانٍ ** هـو جـارٍ طبعـاً علـى الأَضـداد

فـإذا سـرَّ سـاءَ حتمـاً وَيَقْضِـي ** بوُجـــــودٍ إلـى بِلـىً ونَفَـادِ

ومنها:

نحـنُ فـي هـذه الحيـاة كَسَـفْرٍ ** ربمـا أُعْجلـوا عـن الإرْوادِ

عَرَّسُـوا سـاعةً بهـا ثـم نـادى ** بالرحيـلِ المجـدِّ فـيهمْ مُنـاد

كـم أَبٍ والِـــــهٍ بثُكْـلِ بَنيـهِ ** كـم يَتـيمٍ فينـا مـن الأَوْلادِ

فعَـلامَ المُشـاجَرَاتُ وفيمـا ** ولمـاذا تحاسـدُ الحُسَّـادِ

يَـدَّعي المـرءُ إرْثَ أَرْضٍ وَدارٍ ** سَـفَهاً غيـرَ لائـقٍ بالسَّـدادِ

---

(1) الخريدة 173/2.

(2) النقد: من النقود وهي الأموال والنقد من تمييز الشعر جيده من رديئه والبيتين بالخريدة 173/2.

وهــو مَوْرُوثُهــا إذا كــان يَبْقَــى ** وهــي تَبْقَــى علــى مــدى الآبــاد
وقُصَــــاراهُ أن يُشَــــيَّعَ مَحْمُــــو ** لاً بأكْفانِـــــــه علـــى الأَعـــوادِ
وإذا الأَهْـلُ والأَقــارِبُ والأَحْسَــابُ ** راحــوا فأنــتَ فــي الإثْــرِ غــاد
فـالقبورُ البيـــوتُ مَضْـجَعُنا فيهـا ** ومـا إنْ سِـوَى الثَّـرى مـن وِسـاد

ومنها:

كــم أَحــــالَ البِلَــى إليــه قــديماً ** جَسَــداً ناعمــاً مــن الأَجْســادِ
شــاهدُ المــوتِ لائــحٌ فــي جبــين ** الحَــيِّ منــا فــي ســاعةِ المــيلاد([1])

وله في ضمن كتاب من الطويل:

ومــاذا عليــه لــو أَجــابَ بلفظــةٍ ** ولـم يُلْهِـهِ عن ذاك سَعْدٌ ولا سُعْدَى
غــرامٌ لــهُ مَــا بــينَ بطــنٍ لهــذه ** وظهرٍ لذا أَنْسَى الصَّــدَاقَةَ والوُدَّا([2])
والـــــــــــــــــــــــــــوُدَّا([2])

وله في الهجو:

عناصــرُ الإنســان مــن أربــعٍ ** وخالـــدٌ عُنْصُـــرُهُ واحـــدُ
فمـــن كثيـــفِ الأَرْضِ تكوينُـــهُ ** فَهْـــوَ ثَقِيـــلٌ يـــابسٌ بـــاردُ

وله من رجز في الحكمة:

مـن لـم يَمُـتْ فـي يومـهِ مـات غَـدَهْ ** لا بُـــدَّ مِـــنْ مَنْهَلـــهِ أَنْ يَـرِدَهْ

ومنها:

مـن تَخِـذَ العلـمَ خَدِينـــاً عَضَّـــدَهْ ** وحاطَـــه فـي دينـــه وأَيَّـــدَهْ
فـأَنَسْ بـهِ تُكْـفَ شُـرورَ الحَسَـدهْ ** وَبِـنْ مـن النـاسِ وَكُـنْ علـى حِـدَهْ
وَدَعْ لهـم دنيـاهُمُ المُسْـــتَعْبِدَهْ ** حـــاجزةً عـن الرشـــاد مُبْعِـدَهْ

(1) القصيدة بالخريدة 171/2.

(2) السابق نفسه171.

دونـكَ فعـلَ الخيـر فاسـلُكْ مَقْصِـدَهْ ** مَـنْ عَـــرَفَ اللّـــهَ يقينـاً عَبـَدَهْ

وله في الأمير مبارك بن منقذ من قصيدة من الطويل:

لجـأْتُ إِلـى خيـر الأَنـام ابـنِ مُنْقِـذِ ** ليصبحَ من أَسْرِ الحوادثِ مُنْقِذِي

ولـذتُ بِحُـرٍ فـي الأَنـــــامِ مُنَجَّـدٍ ** بصـيرٍ خبيرٍ بالأَنـــــامِ مُنَجَّذ(1) مُنَجَّـــــــــــــــــــــــذ(1)

أَقُـولُ لنفســي إِن تـداني مَـزَارُهُ ** خـذي ذِمَّـــةً منـه لنـــــائبة خُـذِي

وله من قصيدة من الطويل:

قـد قُلْـتُ للمُجْـرى إِلـى مضـمارِهِ ** والمجـدُ نَهْـجٌ صَـعْبَةٌ أَوْعَـارُهُ(2)

ممـا يَشُـقُّ لحـاقُ شَـهْمٍ ســـابقٍ ** فإِليـكَ عَمَّـنْ لا يُشَـقُّ غُبَـارُه

بَشَـرٌ تَحَلَّـتْ بالفضـــائلِ نَفْسُـــهُ ** قَمَـرٌ تَجَلَّـتْ للـــورى أَنْـوَارُه

وله من قصيدة أخرى من السريع:

يُغْضِـي عـن الزَّلَّـةِ حتـى يُـرَى ** كأَنَّـــهُ مـــن حِلْمِـــهِ مـــا دَرَى

ذو قلَـمٍ يَـرْقُمُ مـــا شـــــاءَهُ ** إنشـــاؤُهُ فهـــو كبـــرقٍ سَـــرَى

كأنمـــا القرطـــاسُ فـــي كَفِّـــهِ ** أُودِعَ مـــن أَلْفَاظِـــهِ جَـــوْهَرا

ومنها:

دُونَـكَ مـن عَبْـدِكَ مدحـــاً غَـدَا ** قَـــدْرُكَ مـــن مِقْـــدَارِهِ أَكْبَـــرا

فاصـفحْ عـن الهفـوةِ فـي نُطْقِـهِ ** إذا تصـــفَّحْتَ الـــذي حُبِّـــرَا(3)

---

(1) المُنَجَّذ: الذي خبر الأمور وعرفها وجربها، والأبيات بالسابق نفسه.

(2) الأوعار جمع وعر وهو المكان الخربُ ذو الوعورة ضد السهل والأبيات بالسابق نفسه.

(3) الخريدة 176/2.

وله من قصيدة من الطويل:

وما الحظُّ منقوصاً بقوصٍ وإنها ** أَجلُّ محطٍ للغريبِ وللسَّفْرِ

وأُسنى بلادِ اللّه إِسْنا لساكنٍ ** وخيرٌ من الكلِّ الرحيلُ إلى مصر

فلستُ على أَسْوان أَسوانَ بعدها ** وما أنا مجرٍ ذِكْرَهَا لي على فِكْر([1])

فلا بارك الرحمنُ فيمن أَزاحني ** عن الظلِّ والماءِ الزُّلالِ الذي يجري

مَقيلٌ ولكن أينَ مِنِّيَ ظِلُّهُ ** وسُقْيا ولكنِّي بعيدٌ عن القطر

وله من قصيدة في مرثية أبي محمد هبة الله بن علي بن عرام وكان شاعراً مجيداً من الخفيف:

مَنْ لسودِ الخطوب غَيْرُكَ يُجْلِيهَا ** وقد غابَ منك بَدْرٌ منيرُ

من يحوكُ القريضَ مِثْلكَ يُسْدِيه ** على خِبْرةٍ به وَيُنِيرُ

ليس في العيشِ بَعْدَ فقْدِك خَيْرٌ ** حَبَّذَا وافدُ الردى لو يَزُور([2])

كان ظنِّي إذا المنايا انْتَحَتْنَا ** أَنَّني أَوَّلٌ وأَنْتَ أخير

خانني الدهرُ فيه آمَنَ ما كنتُ ** عليه وعَزَّني المَقْدُورُ

كيف لي بالسلوِّ عنه وَطَيُّ ** القلبِ من فَقْدِهِ جَوًى مَنْشُور

فسقى قبرَه نداه فَفِيهِ ** لثراهُ غِنًى وَرِيٌّ غَزِيرُ([3])

وله بيت مفرد من السريع:

أَنْحَلَني بُعْدِيَ عَنْها فَقَدْ ** صِرْتُ كأني دِقَّةً خَصْرُهَا([4])

---

(1) أسوان: حزين والأبيات بالخريدة 176/2.

(2) وافد الردى: ملك الموت.

(3) الخريدة 176/2.

(4) السابق نفسه.

وله في الحكمة من الطويل:

وما المرءُ إلاَّ من وَقَي الذمَّ عِرْضَهُ ** وعزَّ فلا ذامٌ لديه ولا غِشُّ

وليس بمن يرضى الدناءَةَ والخَنا ** طِباعاً ولا مَنْ دأْبُهُ الهُجْرُ والفُحْشُ[1]

وله من قطعة من الوافر:

أَسَعْدَ الدين قد نَشَأَتْ سَحَابٌ ** بِوَعْدِكَ والمُراد هو الرَّشَاشُ [2]

[2]

فما بالغيمِ لي نَقْعٌ ولكن ** بفيضِ الغَيْث قد يَرْوَى العِطَاشُ

فلم أَقْصِدْكَ دونَ الناس إلا ** رجاءً أَنْ يكونَ بك انتعاشُ

ومنها:

وكم جَازَ القِفَارَ إليكَ عَبْدٌ ** يُؤَمِّلُ أَنْ يكونَ بكَ انتياش

وأَوْفَى من بلادٍ شاسعاتٍ ** يضيقُ بها لساكنها المَعَاشُ

فَآمَنَهُ الزمانُ فقد قَصَدّى ** له وأَصَابَهُ منهُ خِدَاش

وكم حصَّ الزمانُ جناحَ قَوْمٍ ** ولكنَّ الكرامَ رَعَوْا فَرَاشُوا[3]

وله من قصيدة من الكامل:

قَمَرٌ ولكنْ في الغناءِ تخالُها ** قُمْرِيَّةً قد غَرَّدَتْ برياضِ[4]

والخدُّ وَرْدٌ والبنفسجُ فَوْقَهُ ** آثارُ تقبيلٍ ببعضِ عِضَاضِ

كَانَ السرورُ بها فلما أَنْ نَأَتْ ** ذَهَبَ السرورُ وكلُّ آتٍ ماضِ

وله:

---

(1) الخنا: فحش القول، السابق نفسه.

(2) الرشاش: الماء المرشوش، والمقصود به المال.

(3) القمرية: الحمامة والأبيات بالخريدة 178/2.

(4) الخريدة 178/2.

كَـرِهْتُمْ مُقـامي فارتحلـتُ ولـم يكُـنْ ** مَسِـــيرِيَ عـنكم لا مَـلاَلاً ولا بُغْضَـا
ولـو قـد صَـبَرْتم فـرَّقَ الـدهرُ بَيْنَنـا ** بِموتٍ إلى أن لا يَرَى بعضُنا بَعضا[1]
بَعضـــــــــــــــــــــــــــــا[1]

وله من الطويل:

تحقَّقَ صِدْقُ الـودِّ منـي وصَفْوهُ ** فأصبَـــحَ ذا حُكْـمٍ علـى القلـبِ مُشـتَطِّ
وأَعْرَضَ إعراضَ المُدِلِّ بنفسِـهِ ** وتاهَ بأن أَعطى من الحُسْنِ ماَ أعْطِي[2]
أعْطِـــــــــــــــــــــــــــــى[2]

وله من كلمة في الهجو من السريع:

يـا سـائراً فـي غيـر نَهْـجِ التُّقَـى ** وســـادراً فـــي غَيِّـــهِ خابِطَـــا
فَحْـــلٌ كمـــا يَزْعُـــمُ لـكِـــنّهُ ** بالـــدُّبْرِ للمُـــرْدِ غـــدا لائطـــا[3]

وله من الطويل:

أَغـيٌّ وقـد لاحَ المشـيبُ بعارضـي ** وفيـــه لَعَمْـرِي واعـظٌ أيُّ واعِـظِ
ســـأُكْرِمُ نفســـي أن تُقـارِفَ ريبـةً ** بســـرٍ دفـينٍ أو بعـينِ مُلاحِـظِ[4]

وله من المتقارب:

أَأُثْنِـــي علـــيكم وأَكْسُـــــوُكُم ** مـدائحَ تُطْـرِبُ مـن يَسْـــمَعُ
وأُبخَـــسُ حَقِّـــي ويُخْتـــارُ مَـــعْ ** عتـابي علـى مَوْضِـعي مَوْضِـعُ
إذا مـــا رضـــيتُ بهـــا خُطَّـــةً ** فقـد زادَ مـن قَـدْركم أَوْضَـــعُ[1]

(1) السابق نفسه.

(2) السابق نفسه.

(3) المُرْدُ: جمع أمرد وهو الشاب الذي بلغ خروج لحيته وشاربه ولم تبدُ لحيته، أي الذي لا شعر له والبيتين في الخريدة 178/2.

(4) السابق نفسه.

وله من الطويل:

سأَحلمُ عن خَصْمي بمجلسِ لَغْوهِ ** ولستُ حليماً عنه في حَوْمة الوَغَى

وأَستُرُ طولَ الدهر في الغيب عَيْبه ** حِفاظاً ولا أَبْغي رِضاهُ إذا بَغَى([2])

وله من قصيدة من الطويل:

وعَهْدِي بريَّا وهْيَ شمْسٌ مُنِيرةٌ ** عَلَتْ غُصُنَا لَدْناً يَميسُ على نَقَا([3])

خَلَعْتُ عِذَارِي وادَّرَعْتُ بحبها ** فَظَلْتُ أسيراً في الحُبَالةِ مُطْلَقا

تُلاحِظُني أَلحاظُها في حديقةٍ ** بها الحسنُ من كلِّ الجوانبِ أَحْدَقا

تمايلتِ الأشجارُ فيها كأَنَّما ** سَقَتْها يدُ الأَنواءِ خمراً مُعَتَّقا

وصاحَ فِصَاحٌ في الغُصُونِ فخلتها ** قياناً تُغَنِّي لا حماماً مُطَوَّقا

إذا ما نسيمٌ هَبَّ ألقَيْتُ عَرْفَها ** لمشتاقهِ من مِسْكِ دارينَ أَعبَقا

بها الوردُ غَضٌّ والأقاحي مُفَلَّجٌ ** ونَرْجِسُها يَرْنو إليكَ مُحَدِّقا

تَرَى أصفراً من نُورِها ومَرَائشاً ** وأَدْكَنَ مُخْضرًّا وأَحْمَرَ مُشْرِقَا

كأنّ هديرَ الماءِ عَوْلَةُ لَوْعةٍ ** لصبٍ مَشُوقٍ لا يُطيقُ التَّفَرُّقا

يَفيضُ على تلك الرياضِ انسكابُه ** كجودِ ابن شَيْبانٍ إذا ما تَدَفَّقا ([4])

ومنها في وصف مجلس عرس، ومعرس أنس:

كأنّ دخانَ النَّدِّ في جَنَباتِها ** ضَبَابٌ وماءُ الوردِ غَيْثٌ ترقرقا

وله في الأمير مبارك بن منقذ وهي من قصيدة طويلة من بحر الطويل:

---

(1) السابق نفسه.

(2) السابق نفسه.

(3) يميس: يتبختر ونقا: شجر.

(4) الخريدة 179/2.

أقــولُ لنفســـي إذ تزايــدَ ظُلْمُهُـمْ ** فِـرَارَكِ مــن دارِ الهُــويْنا فِـرَارَكِ
فَلَلْمَـوْتُ خيـــــرٌ مـن مُقـامٍ مُـذَمَّمٍ ** تَـرَيْنَ بـه بَـيْنَ الليـالي احتقــارَكِ
وفـي غيـرِ أســوانٍ مَـرَادٌ ومَـذْهَبٌ ** فـلا تَجْعَلـي شَـرَّ النـواحي قَـرَارَك
فخيـرُ بـلادِ اللّه مـا صـانَ مِـن أَذًى ** وأَضـحى مَحـلاً للأميـــرِ مُبـارك
يقـولُ لـه مـن جـــاءَ يَطْلُـبُ رِفـْدَهُ ** ونَجْدَتَــهُ انعَـشْ بالنــدى وتَـدَارك
ويَشْـــــرَكُهُ فـي مالــه كـلُّ قاصـدٍ ** ولكنــه فـي المجـد غيـرُ مُشــارَكِ

وله من الطويل:

وإنـي مُحِـبٌّ للقنـــــــاعة والتُّقَـى ** وللْحِـرْصِ والطبـعِ المُـذَمَّمِ فـارِكُ
وسـاعٍ إلـى صُنْعِ الجميـل مُســارِعٌ ** ومُطَّـرِحٌ فِعْـلَ القبيـــــحِ وتــاركُ
ومَـنْ لـي بخِلٍ فـي الزمـانِ مُصادِقٍ ** يُســاهِمُ فــي بأْســائه ويشــارك([1])

وله من قصيدة في مدح الملك العادل سيف الدين أبي بكر أخي صلاح الدين من البسيط:

أَحْبِبْ بعصرِ الصِّبَا المأثورِ والغَزَلِ ** أَيَّـامَ لـي بـالغواني أعظَـمُ الشُّــغُلِ
وإِنْ غَرِيمي غَرَامٌ لســـتُ أَفتَرُ مِنْ ** أوْصـابِهِ وعَـذَابي فيـــه يَعْـذُبُ لـي
مَنْ لـي بعَوْدِ شَبَـــابٍ مُنْذُ فـارقني ** لـم أَلْـقَ مـن عِـوَضٍ عنـه ولا بَـدَلِ
لبســـتُ بُـرْدَ الصِّبَـــا حينـاً بجِدَّتِـه ** فأَخْلَقَ البُرْدُ حتى صِرْتُ فـي سَمَلِ
كم ليلـةٍ نِلْتُ من نَيْل المُنَى وَشَفَت ** بذلك الوَصْلِ مـا بالصدر مـن غُلَل
عُلِّقْتُهـــا غِـــرَّةً غَـــرَّاءَ غُرَّتُهـا ** كالبـــدرِ حُـفَّ بليـــلٍ فـاحمِ رَجِـلِ

ومنها:

صَدَّتْ وكم قد تَصَدَّتْ للوصالِ ومـا ** يُرْجي انعطافٌ لمنْ قد صَدَّ عن مَلَلِ([2])

(1) االسابق نفسه.

مَلَـــــــــــــــــــــــــــلِ([1])

وله من قصيدةٍ في مدح الفاضل من المتقارب أولها:

عَلـــى اللّهِ مُعْتَمَـــدُ الســـــــائلِ ** فَعَـــوِّلْ علـــى لُطْفِـــهِ الشـــامِلِ
وقـــد مَسَّـــني الضـــرُّ حتـــى لَجَـــأْتُ ** إلـــى كَنَـــفِ الفاضِـــلِ الفاضِـــلِ
لقـــد وفِّقْـــتْ دولـــــةٌ رأْيُـــــها ** إلـــى الـــوَرِعِ العـــالِمِ العامِـــلِ
ملـــيٌّ بتـــدبيــــر أَحْكـــامِـــها ** وأَحكـــامِ مُشْـــــكِلِها النـــــازِلِ
وَمَـــنْ يَفْـــزعُ الحـــرُّ مِـــن فَضْـــلهِ ** إلـــى خيـــرِ كـــافٍ لـــه كافـــلِ
ومـــن تَمَّـــمَ اللّهُ نقـــصَ الأَنـــامِ بســـــوْدُدِهِ البـــاذخِ الكامـــل
تَوَاضَـــعَ عـــن رِفـــعَةٍ فـــاعتَلَى وكـــم حَـــطَّ كِبْـــرٌ إلـــى ســـافِلِ
كتائبُـــــهُ كُتْبُـــــهُ فـــي العِـــدَا وأقـــلامُـــــهُ كالقنـــا الـــذابل
إذا مـــا اســـتمدَّ أتـــاك اليَـــرَاعُ بمَـــــدٍّ بلاغتِـــــهِ الهـــاطل
تـــرى البَـــرْقَ فـــي جَـــرْيِ أقلامِـــهِ كمـــا الوبـــلُ فـــي جُـــودِهِ الهامـــل
تظـــاهَر بالحـــقِّ فـــي حُـــكْمِه ويـــأْنَفُ مـــن بـــاطِنِ الباطـــل([2])

وله من قصيدة من الطويل أولها:

أَطَلْتَ مـن اللـوْمِ المـرَدَّدِ والعَذْلِ ** علـيَّ وإنِّـي فـي الغـرامِ لَفِـي شُـغْلِ
فمـا الحـبُّ إلا النـارُ والعَـذْلُ عنـده ** هـواءٌ بـه يـزدادُ فـي قُـوَّةِ الفِعْـلِ
رَضِـيتُ بسُـلطانِ الهـوَى مُتَسَـلِّطاً ** عَلَى مُهْجَتي في الحكْمِ بالجَوْرِلا العَدْلِ
بِقَلْبـيَ سَـهْمٌ لا بِقَلْبِـكَ صـــائبٌ ** رُمِيْتُ بـه عن سِحْرِ أَعيُنِها النُّجْل([1])

(1) الخريدة 181/2.

(2) الخريدة 176/2.

تَنـامُ خلـيَّ الحـالِ ممـا يُحِسُّـــهُ ** شَـجٍ كُحِلَـت عينـاهُ بالسُّـهْدِ لا الكُحْـل

ومنها:

وإنَّ غَــزَالاً كالغزالـــــةِ وَجْـــهُهُ ** ضعيفُ القوى يَسْطُو بليثٍ أَبـي شِبْل
ومَنْ خَصْرُهُ المهضومُ كَيْفَ مع الضَّنَا ** ينوءُ بِرِدْفٍ بـــاهظٍ حَمْـــلُهُ عَبْلِ([2])
وفـي خـدِّهِ نـارٌ وَمـــــاءُ شـبيبةٍ ** وما اجتمع الضـــدانِ إلاَّ عَلَى قَتْلي
ومشــمولةٍ سُــقِّيتُهَا مــن رُضَـــابِهِ ** وما لي ســوى تقبيل خَدَّيْـهِ من نُقْل
فمــن شـــــفتيه كأسُـــها وحَبابُهـــا ** يَرى عِقْـدَ ثَغْرٍ عِقْـدُهُ غيرُ مُنْحَلِّ([3])

ومنها:

وإنـي وإن شَـــبَّبْتُ لا عَنْ شبيبةٍ ** فمَذْهَبُ قومٍ فـي القريضِ مَضَوْا قَبْلِـي
أَأُخْطِىءُ في قَصْدي وأَخْطُو لِصَبْوَةٍ ** وجامعةُ الســـتين قد جَمَعتْ رجلـي

ومنها يصف بستاناً وبركة وسواقي:

كــأنّ خريــر المــاءِ فــي جَنَباتِــه ** أَنينٌ لمهجـــورٍ يَحِنُّ إلـى وَصْلِ
جَدَاوِلُـــهُ تَجْــري عُيُونـــاً كأنّهـــا ** نُصُولُ سيوفٍ لامعاتٌ من الصَّقْل

ومنها:

وفـوقَ قـوامِ الغُصْـنِ طيـرٌ لهَـزِّهِ ** علـى أَلِـفٍ للقَطْـعِ ثُبِّتَ لا الوَصْـلِ
وقــد غَــرَّدَتْ أطيـــــارُهُ فكأَنَّهـــا ** قيـانٌ تَطـارَحْنَ الغنـاءَ علـى مَهْـل
وطابقهـا الـدولابُ فـي حُسْـنِ زَمْـرِهِ ** مطابقـةَ الشـــكلِ الملائـمِ للشـكل
وأظهــرتِ الأســحارُ ســرَّ نسـيمها ** بوَسْوَسَـةٍ كـالخَطِّ يُعْـرَفُ بالشـكل

([1]) النجل: وصف للعيون التي ترمى بسهام النظرات فتصيب قلوب العاشقين، والشجى: الحزين المهموم والأبيات بالخريدة 2/181–182.

([2]) العبل: الضخم من كل شئ.

([3]) الحباب: فقاقيع الشراب.

فلـــذَّ لنـــا ذاك النســـــــيمُ كأنَّـــه ** سِـــرَارٌ تَهـادَاهُ الأحِبَّـةُ بالرُّسُـل([1])

وله من الخفيف:

إنْ تَمَـادَى الهِجْـرَانُ منـك اتِّصـالا ** صَـيَّر الحُـبَّ بيننـا ذا انفصـالِ

وصَـــــدودُ الـدَّلالِ إن زادَ أَفْضَـى ** بـك عنـدي إلـى صُـدودِ المَـلاَلِ

واعتقـادي أنْ لـوْ صَـبَرْت قلـيلاً ** فَرَّقَـتْ بيننـا صـروفُ الليـالي([2])

وله مما ينقش على سكين من المتقارب:

إذا مَلَكَتْنِـــيَ كـــــفُّ الفَتَـــى ** فمـــا السـيفُ والأسـمرُ الـذابلُ

وأَفْتَـــكُ مِنِّـــي العيـــونُ التـــي ** تُعَلَّـمُ مـن سِـــــــحْرِها بابـلُ([3])

وله من قصيدة من الطويل:

شكوت لها نَهْدَين في الصدرِ باعَدَا ** مُعانِقَهـا عـن ضَـمِّهِ وَهْـوَ مُغْـرَمُ

ولو مَلَكَتْ أَمْرًا لما كانَ خَصْـرُها ** علـى ضَـعْفِه مـن رِدْفِهـا يَـتَظَلَّمُ([4])

وله في أثناء كتاب كتبه إلى بعض أصدقائه من الطويل:

أَظُنُّهُمـــا قـــد صـــافَحَا وَرْدَ خَـــدِّهِ ** ومَـرَّا علـى تلْـك السـوالفِ واللَّمَـى

وإلاَّ غرامـــي فيهمـــا وصَـــبابتي ** وكثـــــرة تقبيلي هُمَا دائماً لِمَا([5])

لِمَا([5])

وله من قصيدة أولها شكوى من الخفيف:

---

(1) القصيدة بالخريدة 182/2.

(2) السابق نفسه.

(3) السابق نفسه.

(4) الردف: المؤخرة الخريدة 183/2.

(5) السابق نفسه.

لا تُطِيلـي علـى الرحيـلِ مَلاَمِـي ** فلأَمْـرٍ إمـْرٍ كَرِهْـتُ مُقـامي
أيُّ خيـرٍ فـي بلـدةٍ يسـتوي ذو ** الـنقصِ فيهـا بفاضـلِ الأَقـوامِ([1])

منها:

ضـاعَ سَـعْيِي ومـا أَفَـدْتُ مـن الآ ** دابِ فيمـا مَضَـى مـن الأعـوَامِ
كـم كتـابٍ مثـلِ الكتـائبِ أَغْنَـى ** عـنهمُ فـي العِدا غَنـاءَ الحسـام
كـم بقَـوْلٍ أَقَلْـتُ مـن عَثـَرَاتٍ ** كـم كِـلامٍ أَسَـوْتُها بكَـلاَمِ([2])

منها:

وَغْـدُهُمْ وَهْـوَ رِفْـدُهُمْ كَسَـرَابٍ ** أو خيـالٍ مـن كـاذبِ الأحـلامِ
وإذا نَكْبَـةٌ عَرَتْـهـُمْ وحَلَّـتْ ** بـذُرَاهُمْ مـن الخُطـوبِ الجِسَـام
فَهْـيَ فَـوْقي تَحْتـي يَمينـي يَسَـاري ** وَوَرائـي مـن هَوْلـها وأَمـامي
وإذا الأَمْـنُ عَمَّهُـمْ واسـتَقَرُّوا ** خِفْـتُ مـنهمْ بـوادِرَ الانتقـام
فأتـا الدهـرَ فـي عَـذَابٍ إذا مـا ** سَـخِطوا أوْ رَضُـوا عـن الأيَّـام
لـيسَ دنيـاهمُ لغيـرِ عبيـدٍ ** أَدنيـاءِ النفـوسِ مـن آلِ حـام
حكَّمُوهُـمْ فيهـا وفـيهمْ فعـادوا ** كـلُّ رأسٍ مـنهم بغيـرِ زِمـام
وتولَّـوْا تـدبيرَها وهـي كالشـمسِ ** ضـياءً فأصـبَحَتْ كالظـلام
فَدَعُونـا لا تأخُـذُوا مـا بأيـدينا ** وَرُوحُـوا يـا ويحـكمْ بسـلام
إنّ في الأرض غيرَ أُسْوانَ فـاهْرُبْ ** مـن أَذاهُـمْ إلـى بـلادِ الشـام
فالرحيـلَ الرحيـلَ عـنهم سـريعاً ** فهـمُ مـن لئـامِ هـذا الأَنـام([3])

وله من قصيدة من مخلع البسيط:

---

(1) السابق 183/2.
(2) السابق نفسه.
(3) السابق 184/2.

قـــــــامَ بعــذري لـــه عــذارٌ ** أَشْـــبَهُ شـــيءٍ بـــبعضِ نُـــونِ
انْظُـــرْ إلـــى شَخْصِـــهِ تشـــاهِدْ ** محاســـــــناً جَمَّـــةَ الفُتُـــونِ([1])

وله من قصيدة يطلب فروة من الطويل:

مليكٌ جميلُ الخُلْقِ والخَلْقِ لم يَزَلْ ** يروعـكَ فـي جِدٍ، يَرُوقُـكَ فـي لَهْـوِ
**يَمُـنُّ بـــــلا مَـنٍ وَيُعْطِـي تَعَمُّـداً ** إذا غَيْرُهُ أعطاكَ عن خَطأَ السَّـهْوِ([2])
السَّـــــــــــــــــــــهْوِ([2])**

منها:

أَيَـــــا مَلِكاً يُعْطِي على كـلِّ حالـةٍ ** ويُعْطي أَخُوهُ الغيثُ فـي الغَيْمِ لا الصَّحْوِ
وما أَبْتَغِي مالاً، ولو شـئتُ لم يَفُتْ ** لـديك وهـذا لـيسَ قَصْـدِي ولا نَحْـوِي
ولكنْ لِفَضْلِ البَرْدِ في الجسم سَوْرَةٌ ** ولـيس بِـوَاقٍ مـن أَذاه ســوى الفَـرْوِ
فجودُكَ يَكْسُوني وَيُرْوِي من الظَّمَا ** ومَـدْحي لمـا أَوْلَيْـتُ مـن حَسَـنٍ يَـرْوِي
وما أَنـا ممن يَجْحَـدُ العُــرْفَ رَبَّـهُ ** ويسـترُ مشــهورَ الصنيــعةِ أَوْ يَـزْوي
وظـاهرُ أَمْـرِيَ فـي الـولاءِ كبـاطني ** وكـم ذي نِفَـاقٍ مُعْلِـنٍ ضِـدَّ مـا يَنْـوي

ومنها:

وقافيــةٍ لَيْسَـــتْ تفـارقُ مَرْكَـزاً ** وتقطـعُ آفـــــاق الـبلادِ بـلا عَـدْوِ
لهـا رَوْنَـقٌ مـن قبـل تلحـينِ وَزْنِهَـا ** إذا كـان بعـضُ الشـعرِ يَحْسُـنُ بالحَـدْوِ
أَمادِحَـهُ اسـتيقظْ فشـــعرُكَ وافـدٌ ** علـى لُغَـوِيٍ شـــــاعرٍ ناقـدٍ نَحْـوِي

---

(1) السابق نفسه.

(2) السابق نفسه.

فمن كان في قولٍ مُجيداً وقاصداً ** مجِيداً به فَلْيَحْذُ في نَظْمِهِ حَذْوِي([1])

وله من المجتث:

كم قد تَصَبَّرْتُ عَنْهُ ** فما أَطَقْتُ سُلُوَّهْ

أَرَى الصَّلاحَ لقلبي ** إذا نَظَرْتُ دُنُوَّهْ ([2])

وله من المنسرح:

إنّ نهاري من بَعْدِ فُرْقَتِهِ ** كالليلِ هذا بذاكَ مُشْتَبِهُ

يقطعُ هذين مُدْنَفٌ كَلِفٌ ** يكابِدُ الوَجْدَ وَهْوَ مُنْتَبِهُ

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه

فبعد هذه التطوافة مع شعر (علي بن عرام) موضوعيا وفنيا، أخلص إلى نتائج من أهمها:

1- أن الشاعر كان مرآة عصره أثّر في الأحداث وتأثر بها.

2- كثرة شعره في المديح يدل على أن الشاعر لم يمتهن غير الأدب والفن.

3- ساهم الشاعر بنفسه في إعلاء راية الجهاد ضد الصليبيين، ومدح قادة المسلمين الذين أعلنوا الجهاد ضد الصليبيين.

4-غزله يدل على أنه لم يقع في تجربة عاطفية حقيقية.

5- جاء رثاؤه في معظمه نصائح عامة وحديث عن الموت حقيقة.

6- جاء وصفه على أجود ما يكون، وقد استمده من الطبيعة ومن القرآن الكريم والسنة ومن الموروث الأدبي.

---

(1) السابق 2/184-185.

(2) السابق 2/ 185.

7- الحكمة شائعة عنده.

8- لم يكن من الشعراء الهجائين وإنما جاء هجاؤه ردا على من هجاه.

9- يعد من الشعراء الذين يجمعون بين القديم والحديث، حيث جاءت –

- معانيه متنوعة ما بين تقليد وتجديد؟
- اختيار ألفاظه تدل على خبرة وموهبة فيختار لكل غرض ما يناسبه من ألفاظ
- استمد صوره من القرآن والموروث الفني والطبيعة.
- مع تنوع الموسيقى عنده، إلا أنه كان يميل كثيرا في شعره إلى بحر الطويل والخفيف.
- وهكذا فابن عرام يعد من كبار شعراء عصره.

والله من وراء القصد.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر والمراجع

1. الأدب في العصر الأيوبي محمد زغلول سلام منشأة المعارف الإسكندرية.
2. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تح محمود شاكر دار المدني جدة الطبعة الأولى 1412 هـ.
3. أسس النقد الأدبي أحمد أحمد بدوي نهضة مصر.
4. أصول النقد الأدبي أحمد الشايب دار النهضة المصرية، د.ت.
5. الأعلام، خير الدين الزركلي المطبعة العربية بمصر 1927م.

6. البيان والتبيين للجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون القاهرة طـ / الأولى لجنة التأليف 1948 م.

7. تحرير التحبير لابن أبي الأصبع تحقيق حفني محمد شرف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1383 هـ.

8. التوجيه الأدبي، طه حسين وآخرون، دار المعارف 1981م.

9. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1997م.

10. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية أحمد أحمد بدوي،نهضة مصر الطبعة الثامنة 1979م.

11. خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني نشر أحمد أمين وآخرون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1951م.

12. دراسات في الشعر الأيوبي محمد كامل حسين دار الفكر القاهرة.

13. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني قراءة وتعليق محمود محمد شاكر مطبعة المدني ط 1992.

14. ديوان الحماسة لأبي تمام شرح التبريزي ط 1913م.

15. ديوان بشار دار الجيل بيروت لبنان ط أولي 1996.

16. ديوان ذى الرمة، تح/أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت1415هـ.

17. ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح /محمد محى الدين عبدالحميد، دار الأندلس بيروت، د.ت.

18. الشعر والشعراء، لابن قتيبة دار الكتب العلمية بيروت 1985م.

19. الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأدفوي تحقيق سعد محمد حسن و د/ طه الحاجري طبعة الدار المصرية.

20. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، تح/محمد محى الدين عبدالحميد دار الجيل الطبعة الخامسة م1981.

21. عيار الشعر لابن طباطبا العلوي تحقيق د/ طه الحاجري و د/ محمد زغلول سلام (شركة فن الطباعة).

22. الفن ومذاهبه في الشعر العربي د شوقي ضيف، الطبعة السابعة، دار المعارف بمصر 1969م.

23. لغة الشعر العربي الحديث اتجاهاتها الفنية وطاقاتها الإبداعية السعيد الورقي. دار النهضة العربية ط1، 1984.

24. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 2/1 عبد الله الطيب دار الفكر الطبعة الأولى 1955 م.

25. معجم المؤلفين عمر رضا كحاله دار إحياء التراث العربي بيروت.

26. مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، د.ت.

27. مناهج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس 1966م.

28. الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث.

29. موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، د صابر عبد الدايم مكتبة الخانجي ط 1993.

30. موسيقى أوزان الشعر العربي د/ السيد أبو ذكري طبعة سنة 2001م.

31. نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الطبعة الثانية تحقيق كمال مصطفى مكتبة الخانجي.

32. الوافى بالوفيات-الصفدى- اعتناء أحمد حطيط، كلاوس شفارتس، برلين، ط1، 2007م. مج20.

33. الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني تحقيق هاشم الشاذلي دار إحياء الكتب العربية.

34. يتيمة الدهر للثعالبي تحقيق علي محمد عبد اللطيف ط الحلبي الطبعة الأولى.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة.....	**1127**
المبحث الأول: الحياة.....	**1131**
المبحث الثاني: الدراسة الموضوعية.....	**1141**
أولاً: المديح.....	**1143**
ثانياً: الغزل.....	**1150**
ثالثاً: الرثاء.....	**1155**
رابعاً: الوصف	**1160**
خامسا: الفخر.....	**1170**
سادساً: الحكمة.....	**1176**
سابعاً: الهجاء.....	**1178**
المبحث الثالث: السمات الفنية	**1181**
الملامح الأسلوبية وبها.....	**1188**
أولاً: التنوع بين الخبر والإنشاء.....	**1190**
ثانياً: التكرار.....	**1192**
ثالثاً: تنوع الأسلوب ما بين الجزل القديم والسهل المعاصر.....	**1194**
رابعاً: التمتع بروح الفكاهة.....	**1197**
خامساً: الاهتمام باللفظ دون إهمال المعنى.....	**1197**

الألفاظ.....	**1198**
المعاني.....	**1202**
الخيال	**1207**
الموسيقى.....	**1213**
الموسيقى الخارجية.....	**1213**
الموسيقى الداخلية.....	**1221**
ثبت بأشعار (علي بن عرام).....	**1224**
الخاتمة	**1246**
قائمة بأهم المصادر والمراجع.....	**1247**
فهرس الموضوعات.....	**1251**